

لا .. يا شيخ

عن قصة حقيقية

رواية

سعيد حبيب

لا .. يا شيخ

عن قصة حقيقية

سعيد حبيب

الكتاب : لا .. يا شيخ (رواية)

المؤلف : سعيد حبيب

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع : ٢٠١١/١٩٧٧١

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 059 - 1

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

لا .. ياشيخ

عن قصة حقيقية

رواية

سعيد حبيب



إهداء

إلى أمي ...

التجلي على قدر المحبة

أراك يوميًا في مرآتي

مصباحًا لا يخبو لخطواتي

جميلة كالحلم ..

واقعية كالحقيقة..

حنانك جارف كاعصار

وإلى أبي ...

ذلك الرجل الذي أسرف في الحلم

من أجل نهار عادل وكريم وباذخ

وكان على استعداد للموت من أجل حلمه

فحتى إن مات .. سيموت وقدماه فوق الرؤوس!

وإلى أحمد النوبي ...

في قلبي وردة حمراء مكتوب عليها اسمك

سعيد

saedhabeeb@hotmail.com

(١)

في ورشة أحد الحدادين
انتفضت مجموعة من القضبان المفتولة
قامت وهددت
وسلطت غضبها على نيران الحداد
عندما عرفت
أنهم يريدون أن يعيدوا تشكيلها
من نافذة لمكتبة عامة
لتصبح بوابة لسجن

شيركوة بيكه سي

لا تصدقوا أن هناك حبًا دون شهوة، أو أن المقدمات الكبرى تؤدي دائمًا إلى نتائج، ولا أن الدموع تغسل القلب، ولا أن الأحلام تدوم للأبد، ولا أن في الأسبوع سبعة أيام وفي الشهر ثلاثين يومًا، ولا أن من يعطي النور عليه أن يتحمل الاحتراق، ولا أن الخير ينتصر دائمًا على الشر ولا أن الجريمة لا تفيد.

لا مسلمات... لا حقائق..

جرِّب أن تقول لرجل وزوجته إن ضرب الزوجة سيحقق لهما السعادة عشر مرات يوميًا لمدة سبعة أيام.. ستتولد قناعة ثابتة لا تتزحزح أكثر من قاعدة أن الأرض كروية تدور حول نفسها مفادها أن الضرب مفتاح السعادة الزوجية!

لا صفقات جيده يمكنك إبرامها مع الحياة، فأنت خاسر في معظم الأحوال، فالحياة تاجر مراوغ يجيد الابتسام وصدره مملوء بفورة الغضب المشتعلة، تحسن المساومة كأنها من أهل الشام، تتقن الكلام المعسول مثل عاشق متيم قادم للتو من فرنسا للقاء حبيبته... وأنت لست كذلك للأسف.

هل نحن مسيرون أم مخيرون؟

سؤال سفسطائي قديم شغل أذهان علماء الكلام لينبت فجأة في رأسك الغارقة في الغيوم، لكن كل ما تعرفه أنت حاليًا أن الحياة مجرد مصادفات وأقدار ترسمها خطواتك وتشبهك تمامًا، فالله حينما يقودك إلى قدر ما فهو يقودك إلى نفسك أيضًا.. لكن هل تستحق ذلك فعلاً.. وهل كنت بهذا السوء لتستحق هذا القدر؟؟

تدرك وقتئذٍ أن حظك كدقيق قمح فوق شوكٍ نثروه...

وقالوا للحفاة في يوم ريح اجمعوه...!

تبًا للحديث مع النفس.. قد تدفعك الوحدة قسرًا إليه.. الجفاف المعتاد يذبح حلقك بسكين صدئ، تشعر أنك تشتهى الماء كرجل

مكتمل الفحولة لم ير أنثى منذ ٧ سنوات، لكن الأزمة تداهمك بقوة وكأنها مفاجأة معتادة.

تصرخ: "زهقت من شرب البول.. عايز مية عادية".. تحلم بمياه نظيفة تروى بها حلقك.. في بلاد المجاعات يشربون مياه حتى وإن كانت ملوثه بالتخلف.. لكن يبدو أنك لا تستحق ذلك، الموسرون لديهم ثلاجات وفلترات وديب فريزرات.. حتى الفلاحين والصعايدة لديهم ترف شرب المياه الباردة من القلل.. لكنه قدرك مع الحياة.. غريزة البقاء تجبرك على شرب بولك بصعوبة.. هذا قدرك مع الحياة..

تجلس في الزنزانة متكورًا على نفسك، بملابس السجن الزرقاء المعتادة. لا يمكن تمييزها إلا عند الاقتراب منك لدرجة تسمح بالرؤية الجيدة، ملامحك تغيرت بشكل كبير، لحيتك السمراء متوسطة الطول باتت أكثر غجرية، وعيناك الواسعتان السوداوان انطفأت لمعة ذكائهما، نظارتك تشير إلى أنك طبيب وجبهتك ظهر عليها ثلاثة خطوط لا تتناسب وعمرك البالغ ثلاثة وثلاثين عامًا، أنفك المستقيم يشي بأنك رجل ذو كبرياء؛ لكن جسدك النحيل يدلل على أنك خاصمت الطعام منذ فترة، وتبدو قامتك قصيرة مثل حب امرأة لعوب!

تضطر لإطلاق الشرارة الأولى من روتينك اليومي المعتاد.. الرائحة العطنة لم تعد بالنسبة لك كارثة، أنفك اعتادت عليها، تكتشف أن قدرتك على التحمل باتت أكبر.

تسمع صوت وقع أقدام.. ترتعش.. ينفتح باب زنزانتك مطلقًا صريرًا مزعجًا يجبر جسدك على الارتعاش مثل سمكة قادمة للتو من البحر تحتضر خارجه، تنتبه إلى أن يديك تورمتا.. لا تعرف سببًا لذلك.. حائر أنت بين احتمالين.. حفلات التعذيب اليومية أم احتجاجهما على الوقت الطويل الذي قضياه في الاستغاثة بالطرق على أبواب زنزانة متعفنة؟.

لا تشعر بلكزة الشاويش حسن عطية، لكن عندما يهوي رفيقه الشاويش مطاوع الزيني بظهر البندقية على أسفل رأسك في مهارة؛ تسقط في إغماءة كفيلة بإجبارك على النوم حتى الفجر على أقل تقدير.

(٢)

إذا استيقظت وأنت تتنفس... مبروك!
فلقد حصلت على فرصة أخرى

أندريا بويدستون

تشتهي خيوط الشمس، لكن حبسك الانفرادي يمنحك الفرصة رقم مليون لأن تتأمل، أصبحت خبيرًا في التأمل لفرط الوقت الذي قضيته هنا، تتحسس رأسك، ليس كما قال صلاح عبد الصبور:

إن هذا زمن الحقّ الضائع
لا يعرف فيه مقتول من قتله، ومتى قتله
ورؤوس الناس على جثث الحيوانات
ورؤوس الحيوانات على جثث الناس
فتحسّس رأسك
تحسّس رأسك

لكن لسبب أقوى وهو أن الضربة الماهرة للشاويش مطاوع الزيني لم تسلمك إلى النوم إلا لبضع دقائق، في الحقيقة أنت لا تعرف الوقت.. أنت تستنتجه.. لا ساعة.. لا كوه يمكنك من خلالها معرفة

الوقت ولا حتى مزولة شمسية.. لا شيء.. الرائحة هي هي.. والجدران المحترقة برداءتها تشبه في تقشر بشرتها الزواحف وربما الإنسان عندما تصيبه حروق من الدرجتين الأولى والثانية.. معلوماتك الطبية جيدة.. جميل أنك لم تفقدها رغم أنك طبيب؟ أثناء ابتسامتك تتعثر عيناك بمشهد أصبح محفورًا في ذاكرتك.. تمامًا مثل جغرافيا منزلك.. السرير هنا.. مكابس الكهرباء هناك.. لكن المشهد في السجن مختلف في بلاغة تعكس عمق المأساة.. الجردل القذر الذي تتبول فيه لتعيد شرب بولك، والجدران الشبيهة بالزواحف المنقرضة، والقضبان الحديدية الصدئة.. وآهات بشرية لا تعرف مصدرها.. وتلك "البطانية" التي تتواطأ مع الأرق لتمنعك من النوم.

لكنك تحمد الله على أنك اعتدت على هذا الطعام المشوه الماسخ، وتكاد تبكي فرحًا لأنك ما زلت على قيد الحياة متشبثًا بخيوط أمل مهترئة تعتمد على قاعدة " كلما نظرت إلى أصبعي المبتور.. تذكرت رجلاً بلا ساقين". تتمتم: الحمد لله..

تتبلل لحيتك السمراء الغجرية المتمردة بدموع طازجة قادمة للتو من القلب، وتعود مجددًا لتلاوة القرآن... القرآن الكريم يخفف من نهم أسئلتك الشرهة إلى أجوبة ليست مجانية:

كيف تحولت بين عشية وضحاها من اسم إلى مجرد رقم؟

ولماذا لا يمر الوقت في السجن أبدًا؟

وكيف ضاقت عليك الأرض برحابتها واستحالت إلى قطعة بحجم خسارتك يطلق عليها زنزانة؟
وكيف أمكنك الاستسلام إلى كل جحافل الحشرات المنظمة التي استباحت جسدك مغتصبة خصوصيتك؟

لكنه القرآن وحده يحميك من الجنون.. كالوشم على الروح تنزل عليك السكينة، وتستعد للنوم وسط زنزانة معتمة باردة.. تحفظ رقمها جيدا زنزانة رقم ٩ في عنبر ٣ "ب" تقع على مساحة ٢,٥ في ٥ أمتار ذات باب قصير القامة لإجبارك على الانحناء، مصنوع من خشب قديم بسمك كبير به كوة صغيرة تسمى النظارة ومن ورائه باب حديد، الزنزانة تفوح منها رائحة مثالية من خليط من دم وبول وبراز، على أرضية مؤثثة بأنواع غريبة من الحشرات لم تر لها مثيلاً من قبل حتى أنها تحرك الأرض من تحت جسدك.
لا تجزم أن تعبير وراء الشمس حقيقي إلا عندما جربت هذه الزنزانة التي لا تدخلها الشمس.. وكيف تدخلها الشمس وأنت في منبع العتمة!

تنام وسط الزنزانة الواقعة في السجن الذي يبدو كأنه بات أرضك وحياتك وتشعر أن الزنزانة ضيقة كتابوت رخيص.
تفكر أنك على أعتاب الطهو تمهيدًا لأعدائك وليمة للديدان، تتحسر على حظ الديدان.. فجسدك النحيل المنهك لن يكون مأدبة جيدة.

تكبح شبح ابتسامة حاولت نحت قوس مقلوب على وجهك.. تعاود تلاوة القرآن الكريم.. تشعر بالسكينة مجددًا.. تتكور مثل جنين في بطن أمه لتحتل جغرافيا مساحة تكفي لقطة برية..

تنام كيفما اتفق!

(٣)

أنت لا تختار أسرتك، فتلك هدية الله لك،
وكذلك أنت بالنسبة لهم

ديسموند توتو

"ملعون أبو دي شغلانة.. مالنا إحنا ومال الجماعة السنيِّين إحنا مالنا. طلع عيني وعين اللي خلفوني وانا أقوله: يا منصور.. يا دكتور منصور يابن الباشمهندس عبد الله الرفاعي إمشي جنب الحيط، عايز تصلى صلي.. مقلناش حاجة دا فرض ربنا هو حد يقدر يقول حاجة.. لكن تربيلي دقنك وتمشى في سكة الجماعة السنيين حيودوك في داهية. ما سمعش كلامي، دماغه ناشفة تقولشي حجر صوان".

قالها الدكتور محمد التلاوي عمك في جلسة عُقدت ذات مساء شاحب واستضافتها شقة أبيك الكائنة في مصر الجديدة، والتي استلزم عقدها نشيج أمك الذي لم يتوقف ونحيبها الذي لا يخمد، .. أبوك خائف من اقتراب أجلها مثلما ماتت عمتك.

هل تتذكر كيف ماتت عمتك يا منصور؟

كان الطقس محايدًا ورائحة ما ثقيلة تشبه ألوان ما بعد الغروب، تسيطر على مدينة المحلة الكبرى، لم تكن عمتك تتوقع قدومك، لكنها فوجئت بك قادمًا إليها من القاهرة، ترتعش.. يرتجف جسدك.. عيناك تحتضران.. قلت لها كلمة واحدة: أريد أن أنام!

جئتها وأنت خائف مثلما لاذ الرسول عليه الصلاة والسلام بزوجته خديجة بنت خويلد قائلاً لها: دثريني.. زمليني. بعد أن أنزل الله تعالى عليه الملك جبريل، وقال للرسول: "اقرأ" فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بقارئ"، وكرّرها عليه جبريل ثلاث مرّات، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في كل مرّة: "ما أنا بقارئ". وفي المرّة الأخيرة قال الملك جبريل عليه السلام: "اقرأ باسم ربّك الذي خلق. خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم".

وكانت هذه الآيات الكريمة أول ما نزل من القرآن الكريم. حفظ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما قاله جبريل عليه السلام.

الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر زوجته بما رأى وسمع فطمأنته وقالت له: "أبشر يا ابن عم، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة".

كان الرسول قد بلغ الأربعين من عمره عندما أنزل عليه القرآن الكريم.. لكنك أنت في الثالثة والثلاثين.. هل تلقي مخاوفك على أسماع عمتك؟ هل لديها البشارة؟

جسدك مسجي على السرير ذي الشراشف البيضاء في غرفة فسيحة.. تتذكر مقولة أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد النيسابوري: "الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله -عز وجل- فإنك إذا خفته هربت إليه".

فالخائف من ربه هارب إليه.

تهرب إلى الله ممسكًا بالمصحف ومرتلاً آيات من الذكر الحكيم.. ترتاح.. وتنام.

تستيقظ في مساء اليوم التالي، أعدَّت عمتك الفطور السخي.. تتظاهر بأنك على ما يرام، تداعب ولديها خالد وعصام مفتعلاً حديثًا طفوليًا ماسخًا، لكن عمتك التي تعتبرك ابنها قالت لك في حنان:

- مالك يا منصور في حاجة؟

- لا.. أبدًا.

- يابني هو أنا تايهة عنك، دا أنا باعرفك أكتر من أولادي.. قول في حاجة

لا تستطيع أن تصوب عيناك تجاهها وأنت تقول:

- الحمد لله.. شبعت.

كانت عمتك واثقة أنك تكذب؛ وكنت كذلك بالفعل؛.. كنت تعرف أنهم قادمون لاعتقالك فالأمر برمته مسألة وقت، فالحكومة هذه الأيام لا

تحسن إلا القبض على كل من يطلق لحيته أو حتى يصلي... أمر اعتقال.. لا تهمة.. لا محاكمة.. و"تترمي في السجن زي الكلب" والبركة؛ كل البركة؛ في قانون الطوارىء.. قبضوا على جميع رفقائك دون سبب واضح والدور عليك الآن.. من المؤكد ذلك.

تتابع عمتك:

– وإيه أخبار قطاقيطك الصغيرين محمد وعمر.. وشغلك؟

– زي الفل... وشغلي تمام.

– ومروة؟

آه لماذا نكأت الجرح ياعمتي وأشعلت مخاوفي مما هو آت؟...

– كويسة.

– أمال ما جاتش معاك ليه؟ مش عوايدها يعني.. دي بتموت فيك وبتغير عليك يا منصور قوي.. أنا عمرى ما شفت واحدة بتحب جوزها كده.. تلاقيك زعلتها. على فكرة لو زعلتها فعلا حاخاصم.. تقاطعها:

– لا أبدًا مستحيل، إنتي عارفة أنا بحب مروة قد إيه...

عمتي.. أنا جاي أستخبى عندك، أصل اللي ما يتسموش حيقبضوا عليا.. تلاقيهم في الطريق.. أقسملك بالله أنا ماعملتش حاجة ولا ليا في التنظيمات ولا يحزنون أنا فوجئت انهم قبضوا على كل أصحابي اللي كنت باصلي معاهم في مسجد الفتح جنب البيت..

تقريبًا كلهم.. فاستنتجت أن الدور عليا.. مارحتش الشغل.. وجيتلك على طول... والله ماعملت حاجة.

كممت الدهشة ردًا محتملاً كانت تتأهب لقوله.

إذن فالأمر ابعد من خلاف بين زوجين.. كانت تعرف أن منصور يصلي.. وكفى، مثل عشرات الملايين الذين يصلون.. ونقطة وانتهت الحكاية.. ليس أكثر من ذلك.

لكن ما قاله الآن يؤكد أن الكارثة قادمة بسرعة، كارثة تكاد تسمع دبيب أقدامها المفزع.

تحركت المرأة بسرعة لإجراء اتصالات، كانت ترمي إلى تهريبك أو على الأقل إخفائك في مكان أمين، لكنك كالعادة افترست حماسها قائلاً:

- سيصلون إليَّ... ولو حبست نفسي في قمقم.

حاولت المرأة أن تخفف عنك مازحة:

- ما بلاش سيرة الحبس.. دي.. قال الله ولا قالك.

غريب أمر الرصاص، إنه يشبه المطر في صوته لكنه يختلف عنه كليًا...

اكتشفت ذلك بمجرد أن أطلق الجيش الصغير الذي جاء لإلقاء القبض عليك وحبسك في زنزانة قذرة الرصاص على بوابة العمارة الكائن بها شقة عمتك؛ رغم أنها مشرعة ومفتوحة.. يبدو

أن هذه طقس للترويع أكثر منه فعل للحاجة، تستنتج أنهم بعدما ذهبوا إليك في منزلك لاعتقالك لم يجدوك، ومن المؤكد أنهم ذهبوا إلى بيت والدك، فكان منطقيًا أن يجدوك عند عمتك.

تستسلم في سكينة، في الوقت الذي تسارع فيه عمتك إلى التدثر بقراءة آيات من القرآن الكريم.

في لحظات كان العسكر في الشقة، ٢٠ ضابطًا أو يزيد انتشروا في الشقة بخفة بعدما أطلقوا النار على بوابة العمارة، أسلحة آلية محشوة بالطلقات ومدافع رشاشة.

خالد الصغير ابن عمتك يهتف:

– دا في ييجي ٢٠ بوكس تحت.. والشارع كله فاتح الشبابيك

تطلب أن تبدل ملابسك فأنت ترتدي ترينج سوت فيهزأ أكبرهم رتبة منك قائلاً:

– هو أنت رايح حفلة ياروح أمك.. أقولك إيه ما تلبس سموكنج أحسن!

يقولها ثم يهوي على وجهك بصفعة قوية عندما تدفعه بضعف محاولاً منعه من تدمير شقة عمتك، تتذكر أن آخر كلمة سمعتها هي: عاملي فيها زعيم يابن القحبة!

في البوكس.. تكتشف أنك لست ضعيفًا كما كنت تعتقد، كنت دومًا تردد أنك أضعف من ذبالة مصباح، لكنك الآن أقوى من ثور.. وإلا

فما السبب لتسيير كل هذه الجيوش من أجل إلقاء القبض على شخص واحد؟ رغم أنك أسير يتابعك جيران عمتك خلسة عبر نوافذ نصف مفتوحة، بقلوب متواطئة، ونميمة لن تنتهي، ويصلك بكاء قلب عمتك التي لم تصرخ ولن ترفع صوتها.

تحاول تذكر رتبة ذلك الذي صفعك.. بزة عسكرية معتادة.. وثلاثة نجوم ودبورة.. لا بد أنه مقدم؛ وربما عميد. تعترف بفشلك في معرفة الرتب العسكرية.. ربما لأنك تكرههم بشدة مثلما يكره الأطفال شرب حليب الصباح.

تدرك أن هناك تكتيكًا جديدًا في جهاز الشرطة، فهم مشهورون بأنهم زوار الفجر؛ والساعة الآن التاسعة مساءً، لا بد أن هناك تطورًا في أداء جهاز الشرطة.

تجتر عبارة خالد الصغير: دا في بيجي عشرين بوكس.

وبعد مسح بسيط أجرته عيناك، تكتشف أن خالد أخطأ.. فالإجمالي خمسة عشرة بوكسًا.

لا تشعر إلا الآن؛ الآن فقط؛ أن عينيك معصوبتان بغمامة، مثل الثور الذي يدور في الساقية، يهتز جسدك مع تحرك البوكس، تردد:

– المرأة عندما تسقط تصبح عاهرة.. والرجل عندما يسقط يعمل كرجل الأمن.

تفكر في زوجتك مروة وولديك محمد وعمر، يبكي قلبك وكأنه يحتضر، وعندما تصل إلى مقر التحقيق معك في لاظوغلي وقبل أن ينفك قيدك وتنزاح غمامتك يأتيك صوت قذر:

- ماكنتش أعرف إن أهلك خرعين كده.. البقية في حياتك.. عمتك ما استحملتش.. المرة قلبها خِفيف.. ما استحملتش الصدمة.. ماتت في ساعتها.. إلا قولي هي كانت بتحبك قوي كده؟.. رحلوه من هنا الواد ده ميقعدش في لاظوغلي.. رحلوه.

- ياولاد الكاااااالب.. ياولاد الكااااااالب.

تصاب بهياج قصير، تحسمه ضربات مدروسة تسلمك بدقة وأمانة إلى الإغماء.

(٤)

التجربة شيء لا يمكن الحصول عليه دون مقابل

أوسكاروايلد

الحياة سجن كبير بلا أسوار ملموسة، لكن الفارق بينها وبين السجن التقليدي أن الجميع يتشبث بجدران سجن الحياة رافضًا الإفراج، لأن الإفراج معناه الموت. وعلى الضفة الأخرى من المشهد يتوق المساجين في السجن التقليدي إلى التحرر منه.. يوم الإفراج... لكن ما الحرية؟

ثمة أشخاص يسجنون أنفسهم في إطار أفكار لا يخرجون منها رغم أنهم خارج أسوار السجون، فهل هؤلاء أحرار فعلا؟

وهناك من سجنه المرض.. وهناك من سجنته الفاقة والفقر.. والزواج القسري. والعمل المتواصل. تمامًا مثلما تنزوي في أحد أركان غرفة فسيحة مديرًا ظهرك إلى باقي الجدران الثلاثة.

وحده الحب يحيل العلاقة بين السجين والسجان إلى تواطؤ محبب وتستحيل القضبان إلى أغنية يرددها طرفان.

تسعى للتخفيف عن نفسك، في الحقيقة ليس من رأى كمن سمع، لا يعرف ثقب الجورب إلا الحذاء، ومن اصطلى بالنار ليس كمن يراقبها.. تدرك أن كرامتك باتت مستباحة مثل حصن سقط على أيدي التتار.. أسير مثل جرذ في مصيدة.. والآن أنت على سيخ قذر يقلبونك فوق نار عمرها آلاف السنين لكي تصبح عشاءً جيدًا لحفنة من الرعاع، تسعى للتمسك بحبال الصبر، ومثل جميع البشر تسعى للتعلق بالأمل، تردد:

- الله ربما يدخر لي حياة أفضل في الآخرة.

الأسطورة الإغريقية تقول إن آلهة الإغريق صنعوا صندوقًا يحوى جميع الرذائل: الكذب والحسد والحقد والجبن والأنانية والانتقام والغيرة والجشع والسرقة والقتل والخيانة والزنا والغدر... هذه الرذائل تتلاقى في صندوق واحد لتخرج جميعًا. وجاءت فتاة تحمل اسم "باندورا" ففتحت الصندوق وأخرجت كل هذه الرذائل، وفي اللحظة الأخيرة أغلقت الصندوق.. ليختفي كل شيء عدا الأمل.. وحده الأمل يبقى!.

ثم أن السجن تجربة قد تحولك إلى إنسان أفضل وأجمل، فكما أن الدود يخرج من الورود سخية الجمال، فالسجادة الغالية مليئة بالعقد المتماسكة.. كلما زادت عقدها ارتفع ثمنها.

تفكر أن الأسباني الرائع سرفانتس تعرض لمحنة الحبس فكتب أروع أعماله دون كيشوت، ثم تكتشف أنك مثل دون كيشوت تصارع طواحين الهواء.

برتراند راسل كتب في السجن مبادىء الرياضيات.

وأوسكار وايلد كتب رائعته "في الأعماق" بين جدران السجن.

وسيدنا يوسف تعرض لمحنة السجن.

- "يبقى أنت يا منصور مش أحسن منهم"؟

ما زلت في بداية حفلة الشواء.. تنتظرك ساعات وساعات من التحقيقات وحفلات التعذيب الصاخبة.

تنفتح زنزانتك التي انتقلت إليها منذ يوم واحد فقط معصوب العينين ومحبوسًا حبسًا انفراديًا.. يدفعك شاويش لن تراه إلا هذه المرة دون أن تعرف اسمه إلى غرفة المأمور، مثلما يساق القطيع إلى المسلخ، تتعثر عيناك بالمأمور..

لا تدري لماذا تكره رجال الشرطة، ربما لأنهم يحاولون وضع ستار بينهم وبين الناس عبر بزاتهم العسكرية المصقولة الباذخة، أنها تأكيد دائم على التفوق.. الفوقية.. السلطة... وأنت تكره السلطة.

يحتاجون دائمًا إلى براهين تثبت أنهم الأفضل فلا يجدون سوى التحصن بالبزات العسكرية.. سطحيون. ولذا فإن الفتيات السطحيات أيضًا ينبهرن بالبزات العسكرية أيضًا.. إذا سألت أيًا منهن عن أملها في الحياة تقول: أتزوج ضابط...

سحقًا لرداء يصنع رجلا!

ملامح هذا الظابط تثبت صحة نظرية لامبروزو.. إن لم يصلح ضابطًا، فملامحه تؤهله للعب دور المجرم، عيناه ضيقتان وكأنهما مشقوقتان بالموس، وشعره قصير أصفر، وشاربه كث منظم بعناية، وذقنه حليقة، ونصف بدين. لكن شيئًا ما في عينيه يشي بالإجرام؛ أو ربما يخيل لك ذلك...

عرفت بعد ذلك انه مدير السجن حمدي زهران.. يبادرك بفظاظة:

– انت ياد خرع كده ليه؟.. كل ما نصبح عليك أو نروقك بتحية خاصة.. تتكوم زي صفيحة الزبالة. ما تسترجل ياد، والا أنت "خوخة" زي أبوك؟

لا ترد.

– ما ترد ياروح أمك؟

– مش حارد يا بن الكلب..

لا تدري كيف قلتها وأنت مقيد اليدين موجهًا بصاقًا محدودًا منبعه ريقك الناشف إلى وجهه.

يرتج جسد حمدي بك كمن أصابته حمى.. وينهال عليك بالصفعات والركلات والسباب القذر.. ثم يسحب كرباجًا معلقًا بجوار مكتبه ويضربك به، حتى تنهار مغشيًا عليك.

(٥)

الرجل يؤمن تلقائيًا بما يتمنى

يوليوس قيصر

في عزاء عمتك تجلس مروة متشحة بالسواد بنظرات زائغة مثل لص مطارد، وحركات عشوائية، وتعرق مبالغ فيه..

هي في الحقيقة ليست حزينة على عمتك بقدر لهفتها عليك، تريد أن تعرف أنت في أي سجن؟ وما التهم الموجهة إليك؟ وما هي أحوالك؟ هل تأكل جيدًا؟ هل تتعرض للتعذيب؟ هل ترتدي ملابس مناسبة للشتاء؟.

تعرف أنك بريء، فأنت مسلم ملتزم ليس أكثر ولا شأن لك بالسياسة، لأنك لا تجيد الرقص على جثث الناس كالسياسيين.

مشتاقة إليك شوق الناسك إلى ربه.. تريد رؤيتك، تقبيلك، السكن في أحضانك

يبكي محمد وعمر متشبثان بها في العزاء.. يبدو أن عدوى الحزن تسربت إلى قلبيهما الصغيرين.. لا يلتفت إليهما أحد سوى أمهما.. فالجميع يعزف نفس النغمة.. البكاء.

أبوك يندفع إليها مثل شاحنة:

- في أخبار عن منصور؟

- لأ.. أنا جبت وسايط كتييييرة كتيييرة، ومحدش عارف هو فين.. ربنا ينتقم منهم!

- طب انتي محتاجة حاجة؟

- لا أبدًا.. محتاجة بس منصور يرجع بالسلامة.

- إن شالله يا بنتي.. أنا عايزك بس تروحي تصبري حماتك لأنها منهارة، دي جت العزاء بالعافية. من ساعة ما قبضوا على منصور وهي هاتك يا عياط، ولا بتاكل ولا بتشرب، أنا خايف هي كمان تحصّل أختي!.

- أنا محتاجة حد يصبرني ياعمي.. ومع ذلك حاروحلها.

- والله أنا وفتحي أخو منصور قاعدين نصبر فيها وما فيش فايدة يعني هي حتلاقيها منين والا منين دي ما بقتش تتكلم كأنها خرساء مسكينة طب فتحي بايظ وصايع وعاملنا مشاكل، ومنصور الدكتور خريج الطب الملتزم الملتحي يمشي ورا السياسة والجماعة السنيين ويتشد في حتة ماحناش عارفين هي فين.

- دا نصيب ياعمي.. نصيب.

تذهب مروة إلى حماتها مرددة عبارات المواساة التي لا تؤمن هي بها، فتأتي باهتة متعثرة على الشفاه.

"لا نشعر بقيمة المياه إلا عندما يجف البئر".

تمتمت مروة متابعة..

إلا أنت يا منصور، معك شعرت بقيمة المياه وحرصت على سلامة جريان مياه البئر الصافية..

بالغت في طرد الأرواح الشريرة التي تطاردها طمعًا في تحويل مياهه إلى بركة آسنة!

تتذكر مروة أن الحبيب المأسور ذات مساء قبّل يديها شاكرًا أنها أعطته أجمل ما في الحياة: محمد وعمر.

فردت شفتاها بتناغم مع عينيها الجميلتين:

- كنت أجمل شيء حدث لي في حياتي... كانت لدي رغبة جامحة في التواطؤ معك، واستمتاع أخاذ بتسليم مفاتيح قلاعي وحصوني إليك بمتعة المنتصر، وحبي لك أكبر بكثير من اختزاله في نعمة الأمومة، إنه بستان كبير مملوء بصخب مطر الفرحة.. والنشوة.. والرغبة.. والحب!.

رددت عليها بسرعة:

- صادري حريتي، خذيني إليكِ... المقاهي، والمحال، والشوارع والأزقة، والليل، والصحراء، والحكمة، واللغة، والحرب، والسياسة، والفن، والرقة، والجمال... جميعها يدعوني إليكِ مثل طفل يتشبث بطرف ثوب أمه في مكان مزدحم!.

- أخاف عليك من أصدقائك.. هم ملتزمون وملتحون لكنني أخشى أن يورطوك في شيء تضيع وأضيع معك.. وفي بلادنا قليلون من يحسنون التدفؤ بالنار دون مخالطتها.. أنت تسير على حقل ألغام.. لا تعرف أي لغم سوف ينفجر، وما هو الوقت الذي سينفجر فيه.!

- إنهم جماعة يتقون الله، ثم إنني أهرب من السياسة كما يهرب السليم من الأجرب.. فقط نصلي سويًا وأسألهم عن بعض المسائل الفقهية.. هل ترين هذه المكتبة؟ ليس فيها كتاب طبي واحد، كلها كتب فلسفية وأدبية، سامحه الله أبي أرغمني على الالتحاق بكلية الطب. المهم قرأت للأمام محمد عبده مقولة ما زالت محفورة في ذهني حتى الآن هي: "أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس"..

باختصار لا شأن لي بالسياسة، لكن كل ما في الأمر أنني ملتزم، وكفى.. ليس إلا.

- لكن الحذر واجب.. هل تتذكر أيامنا الخوالي؟.. وقتها كنت بالنسبة لي شابًا نموذجيًا، وسيمًا، ملتزمًا.. وأحببتك؛ حبًا لن يتكرر، وأنجبنا ولدينا...

- واضح أنك تنسين أنكِ تحدثين شريكك في الجريمة.

بصوت غاضب مفتعل تعابثك مروة:

- أي جريمة؟

ستطوق خصرها كالعادة، طابعًا قبلة عميقة:

- إن كان حبك جريمة.. فأنا أفخر بمنصب كبير المجرمين..

تبتلع ريقك مستدركًا:

- حبيبتي.. الرومانسية ليست فقط حبي لكِ، الرومانسية أفكار عادلة باذخة تتطلع إلى القمر؛ إلى الخير؛ العدل؛ الدين.. الاختيار بين قاطع طريق سيسرقك وثاني سيقتلك ويسرقك وثالث سيسرقك ويقتلك ويستعبدك ماحيًا كرامتك؛ هو اختيار غير منصف!.

ستقتربين منه مثل هرّة تتمسح في صاحبها، دافنة رأسك على صدره، وهامسة:

- أعلم أنك على صواب دائمًا.. لكنني أحبك.. وأخاف عليك.

ستقبل رأسها قائلاً:

- وانا أحبك! وأخاف عليكِ أكثر مثل بلورة أخشى أن ألمسها لمسة مبالغ فيها فتتهشم... تعرفين، أنتِ دائمًا دافئة مثل حجرات الشتاء، والأزهار لا تحسن البلاغة أمام حسنك!

تغوصان في قبله ليلية موصوفة لتنشيط جميع الحواس الخمسة!

لكن ما هذا... إنه العزاء..

تنتفض مروة.. تتذكر عرقك؛ ذلك المضمخ برائحة العود والصندل، رائحة لا تشبه أحدًا.. لأنك لا تشبه إلا نفسك.

ترتبك... كأن مسًا من جان أصابها، تنصرف على عجل.

في هذه اللحظة تحديدًا تلبستها رغبه لا محدودة في العودة إلى منزلكما الواقع في منطقة مصر الجديدة..

بعد وصولها منحت سائق التاكسي المسن بقشيشًا بخيلاً، وتأكدت من نوم الطفلين بإتقان، ثم ذهبت إلى الغسالة؛ تفتش عن ملابسك، وكمن عثر على الكنز المفقود، تشهق شهقة العودة إلى الحياة..

تحتضن ملابسك وكأن جسدك الغائب حاضرًا ببذخ.. تشم عرقك. وتحلق في السماء من فرط النشوة، تقول لنفسها إنها ستنتظرك مثل بنلوب في إلياذة هوميروس، فحين تأخر أوليس زوج بنلوب في حرب طرواده جاء رجال المدينة يطلبون الزواج من بنلوب، لكنها طلبت منهم الانتظار ريثما تحيك ثوبًا لزوجها الغائب.. فيما كانت تفك في الليل ما تغزله في النهار.

مروة تنتظر..

عين على الطريق، والأخرى على الباب.. والقلق يجعلها تذرع الشقة جيئة وذهابًا، لكن جليد الساعات الطويلة لا يذوب..

والباب لا يدق

الباب لا يدق

الباب لا يدق

الليل نائم.. والشوارع خالية إلا من الكلاب الضالة، وأفراد الشرطة، والقطط السائبة..

والباب لا يدق!

تتمنى في هذه اللحظة أن ترسو سفن عشقها على شواطىء الحبيب.. لكن الحبيب أسير.. في مكان ما.. لا تعرفه.

والسجن مدجج بالأسوار

وبلا شواطئ

وجراح الحبيبة المنتظرة حبيبها المأسور تنفتح

وتموت كثيرًا.. ألف ألف مرة!

(٦)

بحّار بلا وجهة... لماذا يأمل في ريح مواتية؟

ليون تيك. إم. دي

فتحي وسطيحة على كوبري قصر النيل.. يقول فتحي:

- تصدق ياد أنا باكح تراب، ودايس عليا قطر، وعندي هبوط في الكبوت، وحرقان في المزلقان، والعفشة قافشة، والحمبوليظ بايظ وخرمان على الآخر!

- ليه كدة يا برنس الجيل... مع إني من ساعة ما عرفتك وأنت خرمان.. لكن لازم أرمي سؤالي على الأرض: طب والعمل يا برنس؟

- نروح نظبط الأداء عند الواد كركر.

- كركر مين.. ده فيلم لمحمد سعد.. آه.. أنت قصدك الواد "الاومليت" اياه.. ده عيل" ثعبان البحر".

- قصدك sea snack.. أكيد يا برنس.. بس المضطر يركب....

- الهوا يا أسطى.. بس الأزمة في إيه، كركر ده بالذات ما باطيقوش لما باشوفه بافصل.. واد خنيق وحيقعد يكلمنا عن الجيم

والبادي بيلدنج وحوارات فاكسانه عن مغامراته مع النسوان وهو أحلي بت مشي معاها كانت شبه على الكسار، ده عيل فاتاي.. مبيعرفش حتى يرول سيجارة حشيش.. وبيقعد يضرب زي العيال الصيص.. ياد ده البارومة ماداستش على رفرف حياته، أنت عارف العيال المنفوخة دي بيبقى مابيعرفوش.. وكتاب الله. مابيعرفوا... عندهم عجز جنسي من الامينو اسيد اللي بيرضعوه، طب تصدق أول امبارح واد عايش في الدور ومحسسني إنه هتلر ومعرضها على الآخر.. جري زي الفراخ قصاد عيل عنده تمنتاشر سنه.. ليه.. العيل ده كان ماسكله موس.. وطبعًا أنت عارف العيال المنفوخة دي جسمهم مشدود على الأخر.. يعني لو اتغز بالموس جسمه كله حيكر زي المسبحة.. وكان منظر إيه. طب عليا الطلاق كنت عايز أصوره بالنوبايل!

لم يضحك فتحي على إيفيه النوبايل قائلاً:

- ياعم أنت فتحتلي حوار فاكككككككككككككككككككككككس وطويل كيييييييييييييييييييييييك.. الميزة الوحيدة للواد دا إنه ديلر.. قضيجي.. يقضيلك أي حاجة في مينيتاية... أقولك من الأخر يا برنس استحمله إحنا حنروح نستقضى من عنده المصلحة.. نعملنا سيجارتين عدالة.. إنشالله حتى نضربهم سجاير على الكوبري هنا مع اتنين كانز ستيلا أو هينيكين مع شوية لسعة هواء ومزاجنا يبقى في السحاب!

- ماشي يا كبير، بس لو قعد يبيض علينا حازنجفلك أمه!
- زيط يابا.... وزيطنا!

كان فتحي بوجهة المستطيل وابتسامته المألوفة ونظرة عينيه المتصعلكة وشعره الفاحم المسحوب إلى الوراء وقوامه الممشوق الناتج عن ممارسته للعبة الكاراتيه في مرحلة المراهقة يرتدي تي شيرت أبيض وسروال جينز أسود مع ساعة بيضاء لزوم الأناقة، فيما بدا سطيحة واسمه الأصلي المليجي (يقول الرواه المعاصرون أن سبب إطلاق اسم سطيحة على المليجي هو أنه ذهب إلى أحد الأفراح الشعبية وظل يرقص على المسرح رافضا النزول لفترة طويلة رغم الدعوات التي وجهت إليه ليفعل ذلك حتى أن الفرح انتهي وهو مصر على مواصلة الرقص كأن الشيطان تلبس جسده إلى أن قال أحد الحاضرين: انزل ياسطيحة. وسبحان الله نزل المليجي بهدوء معلنًا ولادته باسم جديد هو سطيحة) متأنقًا ببذلة سوداء وقميص أزرق وربطة عنق زرقاء ونظارة ريبان.. وجهه مثلث الشكل وعيناه ضيقتان، وأصلع بشكل مناسب، وأنفه مستقيمة.

كان الصديقان واقفين على كوبري قصر النيل برفقة سيارة فتحي الشاهين المفتوحة والتي ينبعث منها شريط أبوالليف وصوته "أنا. مش خرونج أنا كينج كونج ترالم لم".

وعندما ناول فتحي صديقة سيجارة أشار سطيحة إليه بيده اليمني قائلاً:

– لسه طافيها يا نجم!

اندهش فتحي عاقدًا حاجبيه قائلاً:

– ده أنت عمرك ما قلت لأ على أي حاجة خالص يا برنس.

– ليه ياد هو أنا مزة في سن الضياع ما بتقولش لأ

– نياههههها loool

– اضرب دي.

– وإيه دي؟

– حتة فراولايه تامول أصلى.. اضربها علشان تعرف تعيش وتتعايش.

– بس إحنا كده حنضرب كيميا مع "خضرة".. كده غلط، حنفصل.. حنعمل دماغ بوابين. وبعدين الفراولة نصطبح بيها مش نمسي بيها الساعة تسعة بالليل يا برنس مصر!

– اضرب بس أنا جايبها من صيدلية الشعب.. والشعب في خدمة الشعب.

– نياههههها loool

استسلم سطيحة لطلب صديقه وضرب التامول، فيما واصل فتحي:

– بص يا سطيحة إحنا نتحرك بالعربية وننزل نقضي كانزيتين مع شوية شيبسي مع شيكولاتة كادبوري لزوم الدماغ.

تحرك الصديقان إلى وسط البلد واستقرا عند أحد الأكشاك فيما منح فتحي عشرين جنيهًا إلى سطيحة قائلاً:

- روح استقضي العدة علشان ما نفصلش.

ذهب سطيحة لقضاء المصلحة ثم عاد متهللاً:

- أنجزت يا مان.. بينا على كركر.. ده أنا حاخصيلك أمه.

أصر فتحي على أن يقوم بحركة "خمساية أمريكاني" أمام الكشك، منطلقًا نحو الحلمية، حيث كركر الذي كان واقفًا تحت العمارة التي تقع بها شقته بـ"مج نسكافيه" مرتديًا تي شيرت كت لزوم البادي بيلدنج في عز الشتاء مكتوب عليه GUESS فبادره سطيحة قائلاً

- GUESS أمك.. نيييياههها.

- إيه اللي جاب الواد الخنيق ده معاك يا فتحي؟

- يا عم سيبك منه.. عندك مصلحة؟

- أكيد يا برنجي.. المصالح زي الزبادي.. اسطافة إيه عدااالة.. راسك حتطلع فوق السحاب.. والنجوم قدام عينيك.

- فال الله ولا فالك.. ده كده ابقى ضابط وكبسة!

- بص يا غالي أنا حاديك النصاية دي.. وكتاب الله مش دخنة محلي دي أصلي الأصلي.

- يابني أنت بتشتغلني، دا أنا باضرب من أيام ما كنت بتقول على السكر.. أؤووكر، والحتة اللي في إيدي دي شكلها مشغولة بكيميا أبو زومبة أبو صليبة أي هباب ازرق.. بس ماشي يا سي زفت.

(يضحك سطيحة في مبالغة مقصوده ليحرق دم كركر.. هاهاهاااااااااااانياااااااااااههههههههههه)

– ماشي ياعم الضريب.

يقولها فتحي مكرمشًا النقود في يد كركر، وساحبًا سطيحة إلى السيارة، فيبادره:

– حنضرب إيه.. خوابير والا سجاير؟

– تصدق نفسي في جوزة بس غرزة الواد مطافي عبد الوهاب بعيدة. بص إحنا نضربلنا سيجارتين مع لسعة برد على النيل حانظبط الأداء.

بمهارة وإتقان يسيح فتحي حتة الحشيش بمهارة مستخدمًا "سيلفر" علبه السجائر المارلبورو الأبيض ثم يفتح محفظته حيث الركن الخاص بورق البفرة "يرول" سيجارتين بسرعة شديدة وإتقان محكم:

– خد الجي ده وادعيلي يا سطيحة!

– من يد ما نعدمها، دا أنا دخان قفص صدري ده من خيرك؟

يمسك الاثنان بسيجارتي حشيش يدخناها في استمتاع وتلذذ والدخان الكثيف يتصاعد فاضحًا الإثم الصغير والليل ما زال نائمًا، وسطيحة يقول:

– الاسطافة دي مشغولة بكيميا.

- لا أنا حاسس إنها نفس دماغ البانجو.. مش حشيش خالص

- فين أيام البانجو.. والناس اللي كانت بتكتب على الحيطان شارب البانجو لا ينجو.. بس من ساعة ما قبضوا على عزت حنفي ومافيش جوان بانجو دخل البلد.

- مش دا بتاع فيلم الجزيرة بتاع أحمد السقا والايفيه الفاكس بتاع من النهارده مفيش حكومة.. أنا الحكومة.. أنا الحكومة!

- أيوووووه هوه ده!

- بص يا برنس.. هو البانجو دماغه مش زي الحشيش بس هو بيوسع الرئة.. ممكن تشريلك ييجي خمستاشر علبه سجاير في نصف ساعة.

- دا بيقولك إن عزت حنفي ده ما خدش إعدام وهربوه برة.. وكتاب الله واحد صاحبي بيحلفلي إنه هدد الحكومة والمسؤولين بفضحهم، وإنه عنده مستندات تودي نص الحكومة السجن وتدي كل كريمة المجتمع تأبيدة علشان كده هربوه، أهي هي كده الحكومة مالهاش عزيز.. عزت حنفي كان تمام ومية مية آخر حلاوة لما كان بيساعد الحكومة ضد الجماعات الإسلامية في الصعيد بعدين بقى كخة وابن ستين كلب لما اتطمنوا لموضوع الجماعات الإسلامية والأمور استقرت.. طب أقولك مين كان يصدق إن هشام طلعت مصطفى يترمي في السجن كده.

- لا موضوع هشام داخل فيه مزز ونسوان.. إنما عزت حنفي كان مكيف الضريبة!

- والله ما تستغربش من بلدنا.. زي ماقال نجيب سرور حتى الخريطة فاتحة رجليها.. ربك خلقها كده راح تعمل إيه فيها.. بس تصدق كلامك صح ده المعلم عزت باشا حنفي اتصل بقناة الجزيرة لما كان واخد رهاين وكان مالي الدنيا قلق وفجأة لا حس ولا خبر ممكن فعلاً يكون ما اتعدمش.. بس أنا اللي عاجبني في الحوار كله المزة اللي كانت معاه في المخبأ اللي قفشت تموت معاه يا أخي سبحان الله حتى البلطجية وتجار المخدرات بيحبوا.

- امال زيك مالكش قلب.. ياقاسي.

- ياقاسي يا راجون نياهاااهااااا

- بأقولك إيه، أنا السيجارة ما عملتش معايا أي مصلحة. إيه رأيك نعمل خابور؟

- أوكي.. وانا راشق في التيتا دي.. ومعاك يامعلم من أيدك دي لأيدك دي وكلمة السر كتكوت والا أقولك كلمة السر اشعللي!

- من ساعة ما الراجل اللي عامل زي ورقة الشاي المجففة اللي عنده كشك على أول شارعنا ما قالي سهرة سعيدة وغمز بعينيه وأنا عرفت إنه نبر في أمها.. وهو النبر ده اللي جايبنا ورا.

- لأ وتلاقيه ما رجعلكش بقية الجنيه.. كمر الباقي.

- أنت عرفت منين؟

- خبرة.. يابني أنا خبرة. عارف بتوع الاكشاك دول كلهم مخبرين ولاد كلب.. لأ ولو اتقفشت بورق البفرة من غير حرز تتمسك وتاخد ست شهور!

- ياعم فكك من الحوارات الفاكسة دي واظبط الخابور؟

- يابني خابور عدالة.. تضربه من هنا كأنك لابسة بالظبط.. حيتلف أمك!

- أموت فيك يا سليمان يا حلبي يا جاااااااااااااااااااااااااامد

- مافيش كباية.. نضرب فيها" الجلو ويدج" ده؟

- واجيبلك منين كباية.. ؟

- استنى أشوف في شنطة العربية؟

يعثر فتحي على "مج" يصلح لأداء المهمة باتقان، ثم يضع قطعة الحشيش بزاوية بها فتغطيها لحين تجمع الدخان واستنشاقه على مهل.

- بص أنا ظبطت الخابور واحد يشرب والتاني يبقى ناضورجي...

- اوكيييييييييييييييييييززززززززز

فجأة تمر سيارة ميكروباص طراز رمسيس ويترجل منها رجلان في زي مدني ويقتربان من السيارة في غفلة من الصديقين، ويأتي الصوت الفرح بالانتصار:

- انتوا بتضربوا خوابير في العربية.. مش عيب كده يا رجالة... البطايق والرخص.. والخوابير.

يرد فتحي والكلام يتعثر على شفتيه:

- وانتوا مين بقى؟

يرفع كل منهما يده اليمنى بكارنيه يثبت أنه من الشرطة.

سبحان الله فاغشيناهم فهم لا يبصرون، كيف ألهمك الله يا فتحي يا بن الباشمهندس عبد الله أن تخفي "المج"وبداخله قطعة الحشيش بل وورق البفرة الراقد بسلام في جيب بنطلون الجينز في أقل من دقيقة.. سبحان الله.

لا يجد رجلا الأمن شيئًا، لكنهما مصران بلا يأس على البحث وتحرير محضر، والقبض على الخابور وصاحبي الخابور...

ويدس فتحي يده في جيبه مخرجًا خمسين جنيها مكرمشًا إياها في يد أحدهم قائلاً: مرضي يا با؟

تبدو علامات الرضا عليه قائلاً: أنا مرضي بس شوف حتراضي جمال بيه إزاي؟

يضطر فتحي لإعطاء المدعو جمال بيه والذي لا يمت للبهوات بصلة خمسين جنيهًا.. لكي يصبح مرضيًا.

وعندما تسير السيارة بمحاذاته يشعل النور الأمامي للسيارة باحثًا في وقاحة وعلانية عن الخابور والكباية وقطعة الحشيش (خلاص كسر عينهم بميت جنيه)..

في الوقت الذي كان فيه سطيحة جالسًا على الكرسي الخلفي للسيارة مندهشًا يحاول أن يتكلم ولكنه لا يتكلم!

يسعى فتحي لتفريغ غضبه موجهًا حديثه إلى سطيحة ومتعمدًا كرمشة وجهه:

- تصدق أنا كنت مفكرك عزبجي طلعت واد فرفور وفافي وبتاكل رقاق كتير!

- يا معلم أنا قدام الحكومة أعمل عيشة.. وحنان.. ورانيا.. وسعاد.. كمان... هو أنا ناقص دا أنا قفايا مورم خلقة.

- أنت حتعرف تظبط الخابور؟

- آه يابرنس.. وحنشربه برعاية الحكومة اللي كسرنا عينها.

بعجالة شديدة يسحب كل منهما الدخان المكثف في المخ إلى أن تنطفيء جذوة الحشيش معلنة وفاتها.

- أنت سقطت يامعلم والا إيه؟

- عيب عليك دا أنا سطيحة.. بس الاستافة دي محلي يا برنس والواد كركر اشتغلنا

- عيب عليا.. طب انزل يا عيب.. وبعدين محلية إيه دا مغربي أصلي.. ياد دا أنت عينيك مغشلقة ومناخيرك شايطة ومش شايف قدامك، أمال لو مستورد كنت عملت إيه.. حتروح بيتك إزاي.. سبعات في تمانيات؟

- عيب عليك يا صاحبي دا أنا سلطان القعدات.. وملك الحركات.. سطيحة اللي ما بياخدش وبيقول هات!

- أبوك لو كان صاحي حيفقسك أصله صايع قديم ياد يا سطيحة؟

- ياعم نفض.. دا راجل رغاي وبقى فاضي وقاعد في البيت من ساعة ما الحكومة باعت الشركة اللي كانت لاهياه عني للناس اللي معاهم فلوس من بلاد بره وطلع معاش مبكر وهو متفرغ ليا يا معلم بس عارف هو رمى طوبتي.. خلاص فقد الأمل.. بيدخل عليا كل يوم بكرشة بنضارته ببيجامته بسلاطاته ببباباغنوجه بحواراته الفاكسانة.. خلاص اتعودت عليه.

- الحاج عبد الله البيلي من ضحايا الخصخصة والنظام العالمي الجديد... ليه ياد هو كان بيشتغل في عمر أفندي؟

- عمر أفندي مين كل سنة وانت طيب.. دا خدوا عزاه من زمان يا برنس بس في عمر مكرم!.. لأ شركة تانية.. عليا الطلاق ما فاكر حتى اسمها.. ماهو المشكلة إن البلد بقت كلها رجال أعمال ما بيدفعوش ضرايب وبياخدوا كل حاجة بتراب الفلوس من شركات "توبايل" لمتر بـــأربعة جنيه يتباع بعد كده للغلابة الشقيانين بـــ أربعة آلاف. أنا بافكر يغيروا اسم البلد من جمهورية مصر العربية إلى جمهورية رجال الأعمال العربية!

- يا معلم خلاص مصر كلها حتتباع.. حنعمل بتاعه دي اسمها إيه مناقصة وحيفوز بيها اللي يقدم أقل الأسعار!

- إحنا بعنا كل حاجة واستوردنا كل حاجة بس الحمد لله بنصدر المعسل.. بجميع النكهات. أحلى حاجة في الشعب المصري احترامه للمزاج!

- نياهيااااهها

- ياعم أهم حاجة أن البلد دي ربنا كارمها فعلاً.. رغم إنك تحس أنها مقسومة حتتين.. ناس بتلعب جولف وتصيف في مارينا، وناس مش لاقية تاكل.

- يا عم قول يا باسط محدش بينام من غير عشا!

- عليا النعمة بيناموا من غير فطار وغدا كمان!

- واضح إني بازاولك صح؟

- زاول يا بونطي.. يحق لك المزاولة.. على سيرة المزاولة.. إلا قولي ياد أنت مش كنت بتكتب شعر.. سمعنا كده حتة والنبي من على الوش بس اتوصى والا أقولك هات حتة من قعر الحلة أصلي بحب اللغوصة!

- الحلة اتحرقت يابرنجي من زمااااان.

- لأ بجد يا برنس.. أنا فاكر إني أيام الجامعة كنت أنا في آداب حضارة أوروبية وانت في تجارة وكنت باخد منك الشعر بتاعك وأنا مش فاهم ولا كلمة منه وأشترك في مسابقات الكلية كنت باخد دايمًا المركز الأول.. علشان ما بقاش كداب يا الأول يا التاني.. كنا بنقفش بتاع خمسين جندي.. ميت جندي.. كانوا ساعتها ليهم قيمة والغريب إني أنا كنت مستكنيس على الآخر وأنت بتقسم معايا خمسين خمسين فيفتي فيفتي.

- يا بني أنا من ساعة الجامعة ما بكتبش إلا على ورق البفرة ومابقراش غير سلاح التحشيش!

- حشيش حاجة تيجي كده.. اهدى حبيبي كده

- وارجع زي زمااااان

- شفت إمبارح فيلم أجنبي عدالة مع إني مبحبش أقرأ الترجمة بس استكنيست من حتة حلوة البطل كان بيقول: " الأحلام لا تدوم للأبد".

- وإيه هي الحاجة اللي بتدوم للأبد.. دا بيقولك الأبد حيتباع لمستثمرين من برة زي الشركة بتاعه أبويا وحنطلع كلنا معاش على الآخرة!

- تصدق ياد أنت فصلتني.. إحنا جايين نستكنيس مش نتكلم عن الشعر والمستثمرين الأجانب!

- هو اليوم هبق واتفصل من ساعة ما الحكومة قفشت علينا.

- طب يالا نبخ يا صاحبي.. إحنا بقينا الفجر.

سيارة فتحي تنطلق لتوصيل سطيحة الذي عندما ينزل أمام منزله يقول: يالا.. أشوفك tommorw

- بون وي

- حارن عليك بس ما تفتحش عليا.

- يعني حافتح عليك الحمام ياخي!

ينفصل كل من فتحي وسطيحة وكلاهما يردد بصوت عال مخربًا هدوء الليل:

- حلوين من يومنا والله ودماغنا مهيسة!

يعود فتحي إلى المنزل.. يجد في انتظاره عساكر وضباط مدججين بالسلاح.. هو في الحقيقة لم يتوقع أن البوكس الرابض تحت منزله الذي أجره حديثًا ليرتاح من أبيه وليجرب حياة الاستقلالية في حلوان جاء من أجله..

- مساء الخير.

- لأ قول صباح الخير ياروح أمك إحنا وش الفجر.

- اللي تأمر بيه سعادتك يا باشا.. تاخد سيجارة.. تصطبح مع الفجر وهو بيشقشق.

- أنت حتهرج معايا ياروح أمك.. إيه علاقتك بمنصور؟

- منصور مين.. منصور أخويا.. علاقة كده تقدر تقول.. معرفة أتوبيس ركبنا مع بعض وحاسبتله قام هو نزل في محطة القصيرين وأنا كملت لغاية....

صفعة ساخنة تقطع كلام فتحي ليحل الصمت الذي يقطعه صوت كبيرهم الذي يبدو أكثر قسوة:

- رد عدل ياروح أمك.

- حاضر يا سعادة الباشا.. أؤمرني يا غالي.

يقولها وخيط الدم يحفر مجرى أخدودي على وجهه.

- إيه علاقتك بمنصور؟

- أخويا يا باشا.

- أنا مش قصدي كده ياغبي ياحمار.. أنا قصدي علاقتك بيه تنظيميًا؟

- لأ.. كده حضرتك فاهم غلط.. أنا يا باشا راجل محاسب دخلت كلية التجارة انتساب بالضالين وبعد ما اتخرجت فضلت صايع لغاية ما أبويا جابلي شغلانة، ولأني صايع وضريب خدت الجرسونيرة اللي حضراتكو منورينها دلوقتي، انتوا قبضتوا على منصور أنا بقى غيره خالص.. تصدق بالله أنا راجل فالاتي وبتاع نسوان.. طب عليا الحرام اسأل زمايلك في وسط البلد كنت لسة حاتمسك في خابور حشيش، طب أقولك اعملي تحليل دلوقتي حتلاقي نسبة المخدرات عندي أكتر من الدم... إنما تقولي سياسة وناس مربية دقنها ماليش دعوة يا باشا وتنظيميًا وبتاع وشاي بالنعناع والست عند البياع.. ماليش فيه.. بس أنا على حد علمي إن منصور نفسه راجل ملتحي وملتزم وبيصلي وملوش لا في التنظيمات ولا في البطيخ آخره يصلى في الجامع اللي جنب البيت.

حسم كبيرهم الموقف قائلاً:

- خدوه قسم حلوان وروقوه...

لازم يتربي منصور الكلب ده هو وعيلته كلها.

فتحي يصرخ وهو في طريقه إلى البوكس صارخًا:

ياجدعان أنا صايع أنا برمجي أنا بتاع نسوان..

طب بصوا علبة السجاير اهه.. تلتاية الحشيش اهه..

ضيعتوا الخابور والسيجارتين اللي لسه شاربهم ياولاد الككككالب.

(٧)

إن وقوفي لحظة في قفص الاتهام وأنا بريء
ينسيني ألف كتاب قرأته عن الحرية

فولتير

يختزل السجن كافة أوجاعك بمهارة ديسك محترف في جريدة دولية، وتدرك أن هناك تطبيقا منهجيا لمقولة وزير الدعاية النازية جوبلز "عندما أسمع كلمة فكرة أتحسس مسدسي"

أربعة أشهر وخمسة أيام وعدد لا تستطيع إحصاءه من الساعات فرفاهية ارتداء الساعات ليست في السجن منذ سحبوك كالشاه إنسى المسلخ، وأنت في حبس انفرادي مع جردل بول قذر، وبلا تهمة واضحة، وبلا عرض على النيابة، تتمنى لو أنك حتى متهم في اقضية قلب نظام الحكم، سيضمن لك ذلك على الأقل أن ترى اهلك وأن تختار محاميًا وأن يكون هناك قضية.

لكن قضيتك الأساسية أنه لا قضية

يعلقونك كالشاة يوميا، يحاولون إجبارك على الاعتراف بأشياء لم تفعلها.. وتضطر أن تعترف.. ثم لاشي.

الوقت لا يمر، والسجن أبشع ما في الكون، وشوقك إلى الحرية بلا حدود

كنت كالأبله المغرور تظن انه بمجرد أن تكتب تاريخ حياتك منذ أن ولدت وحتى الآن في تلك الغرفة العارية الواقعة في لاظوغلي إلا من مكتب يتدلى فوقه مصباح مخيف سينتهي كل شيء.. لكن ثمة رجلاً يظهر فجأة عندما تنجز ما تكتبه دون إغفال أدق أدق التفاصيل أقارب من الدرجة الأولى والثانية وحتى الرابعة.. يظهر هذا الرجل لينظر إليك بسخرية ممزقا ما كتبته ويأمرك أن تعاود كتابتها وكل ذلك يمتزج مع أصوات الآهات المحيطة بك إلى جانب صوت صنبور المياه الذي تتساقط منه قطرات منتظمة تشوش على راسك وتجعلك تفكر في أن تكسر راسك في الحائط الذي يبدو أمامك

وبعد أن استمرت هذه العملية لمدة سبع ساعات وصلت إلى حافة الانهيار، وفجأة.. نفس العصابة على عينيك.. ونفس البوكس.. وربما آخر.. والزنزانة.. فجأة إلى الزنزانة.. لماذا لا تدري لكن هل ما زال الأمل قادرا على الرقص في قلبك؟.

تكتشف أن نشأة فكر التكفير الذي ترفضه تمامًا لا تختلف كثيرا عن المناخ الذي تعيش فيه ولا علاقة لها بأي تأصيل ديني

إنها فكرة نفسيه جاءت نتيجة العنف والتعذيب الشديد وبدأت بأسئلة منطقية:

هل من الممكن أن يكون ذلك العسكري الذي يواظب على ضربي بالخيرزانة تارة وبالسوط تارة أخرى مسلمًا؟

هل الظابط الذي أمرة بأن يفعل ذلك مسلم؟

هل الحكومة التي وضعت هذه القوانين حكومة مسلمة؟

هل العنف الذي يتقنون ممارسته مع أهالي المعتقلين من الإسلام؟

ولماذا يندهشون إذا تم الرد عليه بعنف مماثل.. القضية برمتها تتحول إلى ثأر وليس عمل إرهابي. انه عنف وعنف مضاد ليس أكثر من ذلك، لكن الناس لا تعرف ذلك هي تعتقد أن العنف مجاني وانه يمارس من قبل جماعة من البدائيين يطلقون لحاهم ويرتدون جلابيب قصيرة ويمارسون العنف لمجرد العنف

إذا عرفت أن زوجتك تم تهديدها بهتك العرض أمامك وانت معلق كالشاه المذبوحة ماذا ستفعل؟

دعك من أن أول قرار ستتخذه هو أن تطلقها وان كانت روحك في يدها لأنك انكسرت أمها مثل كوب من البلور رديء الصنع، لكن ستصبح قضيتك الشخصية هي أن تنتقم.. الانتقام يصبح قضية حياتك مهما كلفك ذلك من فاتورة.. ستصبح.. "بايعها"

تتمنى لو كنت تاجر مخدرات أو حتى قاتل أو متهم في قضية قلب نظام الحكم على الأقل كنت ستعرف التهمة الموجهة إليك والعقوبة التي تنتظرك

تتذكر المرة التي قلت فيها لحمدي بك

- سيادتك أنا دكتور.. مش مسجون جنائي.. أنا مسجون سياسي وليا حقوقي

أجاب بشراسة بدائية

- دا عند أمك، ياروح أمك.. أنت هنا مش داخل بتصريح ومحدش يعرف عنك حاجة يعني ممكن أموتك دلوقتي عادي.. لأنك مش عندي ومحدش حيسألني عنك وعلشان تصدق أنا حاحكيلك القصة في حاجه اسمها الاعتقال المتكرر يعني إيه بقى؟ يعني المادة الثالثة من قانون الطوارئ تجيز اعتقال الأشخاص المشتبه فيهم أو الخطرين على الأمن والنظام العام ودا رأي أو وجهة نظر وأنا ممكن أقول أنك خطر على الأمن والنظام العام بمزاج أمي، المهم حضرتك بعد ما باعتقلك حتتظلم وبعد ما تتظلم حاطلع قرار جديد من وزارة الداخلية بتاريخ لاحق لتاريخ الإفراج عنك.. وممكن القرارات دي تطلع لمدة عشرين سنة عادي.. بمزاجي.. وعلشان إحنا كويسين وقلبنا رهيف ساعتها حنبلغ أهلك علشان يجولك زيارات وحنقعدك مع بقية المساجين وحتعيش حياتك بقى في السجن كأنه بيتك.. أتمنى تكون فهمت؟

ترتبك لأن كلامه منطقي فأنت بلا تهمة.. أنت معتقل بموجب قانون الطوارئ ولا أحد يسأل.

- طب ودلوقتي ليه ماقعدش مع مساجين تانية ليه أنا محبوس انفرادي؟

- أنت حتتشرط كمان ياروح أمك؟ والا أنت فاكر نفسك رايح سيما مع أصحابك؟ خد الزفت دا من قدامي ياعبد الله.

قالها حمدي بك ذو الابتسامة الواسعة والقامة الطويلة مع الشارب الكث.. ثم أشعل سيجارته كأنه يشرب نخب أعدادك وليمة للديدان!.

في هذه اللحظة أطلقت صيحات لشخص يحتضر: "يا كفرة ياولاد الكلاااالب"، في الوقت الذي كان الشاويش عبد الله يدفعك أمامه في خشونه تليق بك.

(٨)

الحب هو أن تفتقد شخصًا وأنتما متفرقين،
ولكن بطريقة ما تشعر بدفء داخلك لأن قلوبكما مرتبطة
كاي كندسن

تجلس مروة تلك التي لم تتجاوز السادسة والعشرين، الجميلة ذلك الجمال الراقي الهادئ، لا يخطفك ولا يشعل حواسك؛ لكنك لا تنساه.. عينان عسليتان وبشرة حنطية اللون وشعر كستنائي مع قوام متناسق متوسط الطول وغمازتان عند الضحك تشعل جاذبية وجهها وأنف روماني مستقيم وشفتان لم تخلقا إلا للقبل.
تكتب في ورقة بيضاء:

دعني أراك بين يدي
بل اسكن في حدقتي
دعني أسلمك روحًا وجسدًا وعقلاً
إن قبلتهم.. سطعوا رعدًا وبرقًا وامطروا سماءً ونهارًا ناصعًا
وإن تركتهم.. لن يقبلوا بعدك سوى قبر.

دعني احدثك قليلاً عن جسدي الذي ما زالت انفاسك تحرسه
عندما يتدفق عليه الماء يزداد حسنًا ونضارة وحيوية
اشعر وقتئذ انني بين احضانك
وان انفاسك اللاهبة تصيبني بالحمى.. تتسرب إليَّ
نهداي يدعوانك إلى النظر إليهما بتمعن
والمرور إلى جنة يتدفق منها نهر من الحليب والنشوة
تعرف..
وانت غائب عني اكتشفت كم احبك
سأراك بعد عام.. بعد عامين.. بعد جيل، وربما جيلين
ولكنني سأراك
لم اكن اعرف أن حبي لك سيزداد قوة وقودها البعد والم الوحدة
خمسة اشهر ويومان وساعتان وخمسون دقيقة وأربعة وثلاثون
ثانية، اي ببساطة.. ثلاثة قرون!
عزائي في وحدتي والمي انني أموت على صدرك مع حلول الليل..
لأبكي بدمع همجي!
الزمن يدهسنا بعجلاته ببطء.. ونحن نحيا على نخب العذاب

منصور...
غيابك اكد لي أنك استبدلت قلبي بقلبك في سرية!
القمر مكتمل الليلة

افكر في التحول إلى ذئب

اعرف انك تقول الآن في سرك: وهل هناك ذئب بهذا الجمال؟

دائمًا تدللني

لكن على أية حال سأتحول إلى ذئب جميل وسأناشد القمر كي تعود إليّ..

لست طماعة.. أريدك فقط

ألف سنة

فقط

ألف ألف سنة!

تتذكر مروة أنه وقبل اختراع الكتابة بقرون أرسلت امـــرأة شـــابة إلى حبيبها رسالة تتكون من: حزمة من الشاي، وعـــشب جـــاف، وتفاحة حمراء، وثمرة ذابلة، وقطعة من الفحم، وورد، وقطعة من السكر، وحصاة، وريشة صقر، وثمرة جوز.

كانت الرسالة تشير إلى ما يلي:

لم أعد أستطيع شرب الشاي وحيدة، لقد أصبحت دونك كالعـــشب الجاف، ووجهي يحمر كالتفاحة عندما أفكر بك، وقلبـــي يحتـــرق كالفحم. إنك جميل كالوردة، وحلو كالسكر، لكن هل قلبك قـــد مـــن الحجر؟ سأطير إليك لو كان عندي جناحان، أنا ملكك مثـــل جـــوزة في يدك.

آه لو أعرف مكانك... سأقتفي أثر هذه المرأة.. سأفعل ذلك وأكثر

سأكتب إليك.

لا أكتب إليك لكي أتطهر

ولا لأنني قلقة

وإنما لأنني واثقة أنك في ذلك المكان الذي يقتلونك فيه حاليًا

بإحكام.. تقرأني.. تسمعني.. تحس بي

أكتب إليك من قبري

لتجمع رمادي..وربما رمادك

ونتوحد سويًا

هل تعرف لماذا أحببتك؟

سؤال ساذج فلا تفسير لما لا يفسر ولا تعريف لما لا يعرف

لكنها رغبة العاشق في معرفة سبب تعاسته وسعادته معًا

سعادتي بقربك

وتعاستي ببعدك

مزيج من نار ونور

هو الحب

احببتك ربما لأنني كنت اتوق إلى رجل بكر

فلماذا تشترطون أن تكون المرأة بكرا؟

لكنني اقصد أن يكون رجل أنا أول امرأة في حياته

لم يضيع مخزونه العاطفي على بضع نساء

لم يستهلك بعد
وتحققت امنيتي وكان القدر سخيًا فارسل لي حبيبًا كانت نبي
وكنت انت كل الرجال
فجعلتني كل النساء
لست مجنونة لكي اطلب من نبي أن يتخلى عن أحلامه
لكنني عاقلة وواثقة من استقرار عقلي في رأسي عندما أحلم أن تعود لي
كنت تقول لي دائمًا ان معاناة الشخص الذي تعود على شرب نسكافيه الصباح
هي نفسها معاناة الفقير الذي يتضور جوعًا بأسماله البالية
كنت تقصد المعاناة كإحساس وليس كفعل مادي
وكنت اعارضك بشدة
لكنك كالعادة حسمت النقاش بقبلة كالحمى
الآن دعني اقول لك أنني اوافقك على جميع الآراء التي تعتنقها
ولن أعارضك أبدا
فقط عد إلي
الوسادة التي ضمت راسينا تنتظرك
القمر في شرفتي يترقب عودتك
الشمس تسال عنك باشعتها كل صباح
وجسدي يتوق إلى التعرف لك !.

(٩)

لقد حكمت خمسين عامًا تخللتها فترات انتصار في الحرب وفترات سلام، وكنت محبوبًا من أتباعي، مهابًا من أعدائي، ويُجلني حلفائي. حصلت على الغنى والشرف والسلطان والمسرات وكل ما يحقق هناءتي ورفاهي. وأنا في هذه الحالة قمت بتمحيص وبحث للأيام التي عشتها بسعادة صافية ووجدتها لا تتعدى الأربعة عشر يومًا.

عبد الرحمن الثالث

حاكم الأندلس

ثمة خسارة واحدة في الحياة تتقزم معها باقي خساراتنا، باقي الخسارات التي تواصل نهش عمرنا تتضاءل أمامها، وهذا في حد ذاته شئ جيد، فكما أن الحب العظيم لا يأتي في العمر إلا مرة واحدة إن كنت محظوظًا؛ وهذا مجرد احتمال؛ فإن هناك حقيقة ناجزة واجبة لا يعرفها الجميع مفادها أن كل شخص يولد من رحم أمه ومعه سلسلة خسائره.. لكن القدر رحيم ورؤوف بنا.. الخسارة الكبرى لا تصادفها في حياتك إلا مرة واحدة فقط، والباقي خسائر صغيرة يمكنك حرقها بالنسيان.

.. وحدها الخسارة الكبرى تبقى محفورة في القلب.. تنسى كل شيء ولا تنساها.. إذا كنت محظوظًا ستصيبك خسارتك الكبرى في موعد مناسب.. تكون شابًا مليئًا بالعنفوان قادرًا على ابتلاعها. وإن كنت ممن خاصمه الحظ فخسارتك الكبرى ستداهمك في شيخوختك.

ستجلس أمك المريضة المسنة قسرًا على كرسي متحرك أخرس، بخمار أبيض ناصع تقرأ القرآن الكريم وتصلى باكية، تتضرع إلى الله أن ينقذك وأن يخفف عنك وأن ينزل عليك السكينة وأن يهدي أخاك فتحي.

لكنها فجأة عدلت من الدعاء:

يارب اهدي فتحي بس مش لدرجة منصور.. مش عايزة أخسر الاتنين.

ستتذكر أن فتحي لم يسأل عليها بخلاف عادته وستتصل به على الموبايل. لكن فتحي لا يرد.

كانت المرأة تعلم منذ زمن أنه لا توجد حياة جيدة مثل التي عاشتها، بلا صعوبات، ومنزل مؤثث، وطفلين مثل القمر، وصحتها هي وزوجها جيدة، حتى أنها قالت لزوجها ذات مساء:

- أنا مش مصدقة السعادة دي؟

ثم تبكي

فيرد عليها:

- يا شيخة قولي الحمد لله.. أنا مش عارف ليه إحنا بنحب النكد كده.. بنعشقه عشق.. بنموت فيه.. نفرح نبكي.. نزعل نبكي.

- بس فرق كبير بين الاتنين لما بنفرح بنبكي لأتنا خايفين الفرحة تضيع.. تروح وبنقول خير اللهم اجعله خير... وبنمسح دموعنا واحنا فرحانين أما لما بنحزن بنبكي لأن قلبنا مكسور.

- عارفة ليه الخواجات بتوع بلاد برة متقدمين؟ لأنهم ما بيبالغوش في أي حاجة، إنما إحنا بنبالغ في كل حاجة ماشيين بنظام عيش اللحظة وقت الحب حب ووقت الشغل اشتغل ووقت الراحة استريح إنما إحنا بنلعب وقت الشغل وبنبكي وقت الفرح وبنشتغل فترات الراحة بس، حاجة كده سمك لبن تمرهندي!. دا حتى عمر الشريف الممثل بيقول لما سافرت هوليوود كانوا بيقولوا عليا بامثل بشرقية لأن كل حاجة عندي مبالغة.. إحنا أوفر.. أوفر في كل حاجة.. علشان كده تلاقى الخواجاية من دول عندها ستين سنة وما تديلهاش تلاتين لأنهم بيعملوا كل حاجة في وقتها مش زينا بيشيلوا الهم.

- أنا بس خايفة.. مستغربة إن حياتي أنا وأنت ما شاء الله ماشية من غير مشاكل وخايفة المشاكل تيجي بعدي.

- خلاص ندعي إنها ما تجيش لا في صحتنا ولا في ولادنا.

- يالا ندعي مع بعض.

تتذكر المرأة المسنة هذه الحادثة التي وقعت منذ خمسة وعشرين عامًا وهي تنظر إلى ما وراء الافق في شرفة منزلها محادثة نفسها بأن ما خشيت منه وقع، وأنها وزوجها لم يدعوا الله بإتقان كما يجب.. لكنها الخسارة الكبرى.. وقت الشيخوخة.

دمعة هاربة ساخنة تجبرها على تحريك وجهها كهرة..

تذهب للتتوضأ لكي تواجه خسارتها الكبرى.. التي تأخرت كثيرًا.

كانت واثقة أن نور قلبها سيهزم جيش العتمة الفادحة من حولها، لكنها كانت تدرك في الوقت نفسه أن ثمة عاهة أصابتها ومضطرة أن تعيش بها!

(١٠)

في كل حياة تسقط الأمطار، وتأتي أيام مظلمة وموحشة

هنري لونجفيلو

ـساء الفل على الحبسجية والعزبجية واللمامة وزبالة الزبالة.. ـتباه يا معلمين. من الآخر كده أنا عزبجي.. عربجي.. حاتي.. لا عايش عوالة ولا مستنى حوالة ولا أختي في المستشفى محتاجة نقل دم. لا حكومة تهم ولا بوكس يلم المطوة دي قسمتي والسنجة دي لعبتي إن خفى جسمي كفاية اسمي.. فتحي عبد الله يعني سلام ياعمي تلاتات تلاتات من هنا لحد الشلالات.. يعني ناهيا أقرب من كرداسة والسكة غلبت المحلة على أرض الخيار في فاقوس.. يعني روق الأناني روق والجميل لبس واتزوق.. يعني خمسة ببصل وبصل بخمسة.. يعني سيد بتاع البيانولا.. يعني الرجولة أدب.. يعني أي حد حيقرب مني أو يحاول يقلبني في ساعة في محفظة في أي مصلحة حاشقة وأزنجفه.. أوعوا تفكروا إني تلميذ أنا لسه قاتل واحد برة دلوقتي.

انتهت الديباجة التي ظل فتحي يلملمها من بين دفاتر الذاكرة مستخدمًا فيها تاريخه من التسكع والصعلكة والصياعة الذي ينحصر في المشاركة في بعض الأفراح البلدي واحتكاكه المستمر بالضرِّيبة في قعدات الأنس، كان يعرف أنه إذا لم يفعل ذلك فإن محفظته وبها خمسمائة جنيه ستذهب إلى صاحب نصيبها، كما أن ساعته الكارتييه لن يراها مجددًا، لكنه كان مطمئنًا على الموبايل الذي تم احتجازه منه قبيل دخوله إلى حجز قسم شرطة حلوان.
كان يفكر أن الأمور من الممكن أن تتطور وتذهب أبعد من ذلك عن طريق سلبه أعز ما يملك الرجل مستعيدًا العبارة التي قالها محمود حميدة في فيلم رغبة متوحشة: "أنا عشت سبع سنين في السجن نايم على ضهري".

كان الحجز عبارة عن غرفة رديئة بها كوة مسيجة جدرانها متقشرة مكتوب عليها عبارات للذكري دفعته لعقد مقارنات بينها وبين الجملة الأشهر: "لا أمان لأي فتاة" تلك الجملة التي شوهت نصف جدران شوارع القاهرة وربما أكثر والتي كتبها عاشق معتوه.. فضلاً عن الجملة التي باتت أكثر شهرة حاليًا والتي تنتشر على بعض الجدران "فين الحشيش يا حكومة؟".

اقترب منه أحدهم، كان مفرطًا في الطول وضخم الجثة بشارب كث وعينين جاحظتين ونظرات ليست ودية وملابس تدل على أنه من

فئة سواقين الميكروباصات؛ وهي فئة تنتشر في المجتمع المصري وتزداد نفوذًا؛ ليقول:

- أنت عبيط ياد والا إيه.. دا أنت شكلك هنيه وصيص وكاورك ومحتاجلك هلال في وشك للذكرى الهباب وأيام العذاب والنوم على التراب.. أصل ياأسطى التعاويرة في الوش ما فيهاش معلهش؟

لا يدري فتحي كيف واتته الجرأة ومن أين استمد قوته ليدفع ذلك الكائن، كل ما يعرفه أن جسده كان مسجيً على بورش الحجز.. فتح عينية بصعوبة.. اطمأن إلى ساعته ومحفظته لأنه يعلم أن الذي تضيع منه ساعته أو محفظته يضيع منه ما هو أبعد من ذلك بكثير، يشعر أنه متعب بشدة كمن اصطدم بقطار للتو، عيناه لا تريان بوضوح ثمة "زغللة" واضحة لكنه سمع صوتًا أجش يقول:

- أحمد ربنا يا فتحي.. دا أنت كنت حتتخرط.. بس حظك حلو. مرسي الحلو كان في الحجز.

لا يضيع فتحي وقته في التفكير فهو يتذكر مرسي الحلو جيدًا، إنه أحد معالم عالم البانجو سابقًا والحشيش حاليًا في مصر القديمة، ثم أنه "ابن بلد" ويمنح لعملائه الدائمين فوق ما يشترونه "نفحات" سخية.

- حبيب هارتي... هي دي بقى محاسن الصدف!

يرد المعلم مرسي بثقة:

- أنا أمنت عليك.. الواد سيكا كان حيزنجفك ويحط عليك.. بس أنا لحقته بعد ما رزعك بونية واحدة كانت في طريقها لعينك بس ستر ربنا أنها جت فوق حواجبك!

يضطرب فتحي قليلاً ثم يقول:

- الحمد لله.. أنت بونطي يا معلم.

- أنا عمري ما أنسى زبايني الجدعان أبدًا وانت ياد كنت جدع مع أنك أفندي وبلحة وكنبة ومالكش فيها بس كنت جدع حقاني ومش بتاع مشاكل.

لا يعرف فتحي كيف يتعامل مع هذا الرجل الذي يجيد المدح فيما يشبه الذم لكنه يقول:

- ربنا يخليك يا معلم.

يشعل المعلم مرسي سيجارة مارلبورو أبيض سيلفر "كمرها" من جيب بنطلون فتحي عندما غفا تحت تأثير "بونية" سيكا ولا يمنحه واحدة.. ثم يقول:

- أمال أنت إيه اللي جابك هنا يا برنس؟

يتجرأ فتحي قائلاً:

- بيقولوا الكيف مناولة مش مقاولة ودي سجايري.. أنت كمرتها.

الإجابة تأتي على هيئة نظرة عدوانية.. فيستدرك فتحي:

- أنا باقول يعني دخانك عماني.. كبريتك لسعني.. ماتولع يا معلم والا إحنا قاعدين في بنزينة؟

يبتسم المعلم مرسي نصف ابتسامة وهو يقول:

- ياد ما تركبش حوارات عليا.. عارف أن دي علبة سجايرك.. أنا جايلي تموين بعد نصاية كده.. ما تقلقش، وعلى العموم خد "سوجارة".

يتلقف فتحي سيجارة هي أصلاً ملك له وآلت إلى المعلم قسرًا قائلاً

- بص يا غالي.. وحياة من جمعنا هنا من غير ميعاد أنا معرفش حاجة أنت عارف أنا راجل فالاتي باعشق الأنفاس والنسوان وماليش في أي حوار فاكس. فجأة الحكومة غبت علينا كده يا معلم قال إيه بيأدبوني علشان منصور أخويا ربي دقنه وحضرله درسين دين.. طب أنا مال أهلي... طلعتلهم علبة السجاير مفيش فايدة، حلفت على المصحف مافيش فايدة.

- إلا قولي صحيح الجماعة السنيين دول بيقولوا إن الخيار حرام؟

يضحك فتحي حتى يستلقي على قفاه قائلاً:

- هو دا عيب التليفزيون والمسلسلات والأفلام.. دول ناس عادية جدًا كل حاجة حلال عندهم إلا اللي قال عليه ربنا حرام.. ملتزمين شوية بيصلوا ويصوموا ويزكوا ويتفسحوا ويحبوا ويتحبوا وبياكلوا كل حاجة إلا الحرام وبيشربوا كل حاجة إلا الحرام وبيتفرجوا على التليفزيون ويروحوا سينما ويسافروا برة. طب دا أنا اخويا منصور دكتور حب زميلته واتجوزها عمري ما شفت اتنين بيحبوا بعض كده بس مش حب بوسة ونغمض ويالا وجنينة

الأسماك وكوبري الزمالك وتحت بير السلم أو ابقى تعالي بالليل وأنا أوريك الويل لا، حب بتاع رحمة ومودة وخلفة عيال حب يدوم مش حب لف وارجع تاني. ومشفتش اتنين أسعد منهم لغاية ما الحكومة قفشته. بس المصيبة أننا بنقعد نتفرج على التلفزيون كده ونصدق أي حاجة غلط.

طب قولي يا معلم أنت مش لاحظت أن كل الأفلام من ساعة ما بدت السينما وفي أي بيت لازم يكون فيه خمرة.. أي بيت عادي.. طب هو دا صح.. هو دا بيحصل؟

– لأ طبعا.. خمرة أعوذ بالله مفيش أحسن من الخضرة.... تصدق ياد عندك حق من أول أفلام الأبيض والأسود لغاية دلوقتي النسوان بتشرب والرجالة بتشرب وأي بيت لازم يكون فيه حتة كده زي ركن للخمرة أعوذ بالله شوف أنا تاجر بتاع دماغ بس ماليش في المية أنا بالعب في الخضرة بس بحب اتدحرج على الحشيشة!

– المهم تفتكر حيعملوا معايا إيه؟

– ما تقلقش حيحجزوك أسبوع يقرصوا ودنك وبعدين يطلقوك.

– يطلقوني.. إيه يطلقوني دي هو أنا كلب.. مقبولة منك يا معلم.. بس أنا مال أهلي.. أخويا راجل بتاع تنظيم القاعدة، بتاع جماعات إسلامية، متدين، ابن ستين كلب.. أنا مال أمي؟

- لأ مالك ونص.. أنت مش أخوه.. يبقى تلبس يا معلم.. دا ممكن يجيبوا أمك وأبوك كمان.. حتتسحلوا يا غالي.

تصعق المفاجأة فتحي ويبدو كلام المعلم منطقيًا.. فيقول:

- دا لو حصل وعهد الله المأمور والعسكري وصف الظباط اللي في المديرية "تمن" من أولها لآخرها مش حيكفيني موتهم، وحياة أمي أنتِحَر نفسي في مديرية الأمن.

- ياعم اهدى، أنا بأقولك احتمال.

تتلبس الجرأة فتحي فيسحب علبة السجائر من المعلم مرسي محتفظًا بالعلبة أمامه..

يريد الانفراد بنفسه، لكن كيف يتحقق ذلك والحجز يضم خمسة عشر شخصًا، ثم أن المعلم يقول بصوته الغليظ:

- ما سألتنيش بقى أنا جيت هنا في إيه.. أكيد في نفس البوكس اللي أنت جيت فيه، أنا باقصد أتمسكت إزاي؟ أقولك بقى يا سيدي.

ويحكي المعلم القصة الكاملة، وفتحي لا يسمعه، فهو في واد آخر.

وتنفد السجائر.. وعندما يحل الليل والمعلم ما زال يحكي حكايات لا تسمعها يخرج من جيب جلابيته البيضاء غير النظيفة جوان حشيش دافعًا به إلى فتحي قائلاً:

- خد دي.. التموين جه.. لو ضربتها صح حتروح في داهية.

يتناوله منه في خفة قائلاً:

- مافيش أكتر من كده داهية.

وبعد أن يجهز فتحي على الجوان.. لا يذهب في داهية ولا يحزنون.. فالكلاب المسعورة التي تجري وراء بعضها في ذهنه ما زالت تركض بسرعة.

لا يهمه أنه في حجز قذر، ولا أنه مع أرباب السوابق، ولا أنه لم يغير ثيابه بعد، ولا أن أهله لا يعرفون عنه شيئًا، ولا إحساس المظلوم الذي يشعر بنكهة مريرة شديدة الخصوصية...

كل ما يهمه حاليًا.. ألا يمس أحد شعرة من رأس أمه أو أبيه.

ولكن هل كل ما يتمناه المرء يدركه؟

(١١)

الوقت يمضي؟؟؟

لا... للأسف فإن الوقت يبقى ونحن نمضي

هنري أوستن دوبسون

العادة تخفف كل شيء.. عندما تصحو من النوم فتفتح نوافذ حجرتك ستصطدم عيناك بالضوء الذي ترسله الشمس، لكن عندما تمر دقائق لن تشعر بالضوء بالأحرى ستعتاد عليه. وإذا ركبت القطار فإن أذنيك تنفر من الصوت الذي يحدثه احتكاك العجلات بالقضبان، لكنك سرعان ما تعتاد عليه بعد دقائق ليصبح مألوفًا..

إنها العادة.. صفة إنسانية بامتياز.

لكنكِ يا مروة لم تعتادي على غياب منصور أبدًا، ويبدو أنكِ لن تعتادي على ذلك.

الوقت توقف.. وحياتك توقفت والباب لا يدق.

يرسل لكِ أبوه نقودًا فتشكرينه وتدمع عيناك على الغائب ولا تسألينه... إذا كان عنده أخبار سيقولها لكِ، هكذا بكل بساطة.

لكن ما زرعه منصور باق.. ترينه أمامك، يزودك بقوة الصبر وبخيوط الأمل: محمد وعمر

صحتك اعتلت فالذي يستحقها غائب..

والوقت لا يمضي.

كلامك أصبح قليلاً، بل وأصبحتِ تميلين إلى العزلة رافضة بصلابة جميع المحاولات لكي تذهبي للاقامة مع أمك أو أخوتك وحتى أبو منصور وأمه متعللة بانك تتوقعين وصول منصور في أي وقت، ولذا يجب أن تكوني مهيأة لاستقباله، لكن الحقيقة أنكِ تريدين أي شيء من رائحته وشقتكما هذه من باقي رائحته، كل ركن بها شهد غزوة عاطفية...

هنا قبلك قبلة أصابتك بالحمى..

وهنا تحاور جسداكما طويلاً..

فعندما تتكلم الأجساد تتعطل جميع اللغات..

هنا رقدت بجواره ثلاث ليال تتوسدين القلق عليه بعدما أصابته نزلة برد..

وهنا كان يطهو طعامًا رديئًا عندما كنتِ حاملاً في محمد، وكنتِ تتذوقينه كأنكِ تتذوقين طعامًا فاخرًا من مطعم ماكسيم الباريسي..

هنا كنتِ تتعطرين له بالعطر الذي يحبه.

ينتابك شعور حاد بأهمية إدخار صوتك إليه..

لا تريدين التحدث مع أحد.

نظرك لا يرى سواه في جدران البيت في الصور التي تحتفظين بها أسفل خزانة ملابسك.. في أفلامه المفضلة.. في رقمه على هاتفك النقال.. في بعض رسائله المحفوظة على نقالك التي كان يرسلها إليك من المستشفى..

- أنا جوعان جدًا.. عاملالنا إيه النهارده؟

- تعالى بس مفاجأة.

- كالعادة فهمتيني غلط، أنا جوعان حاجة تانية.. لما آجي حاكلك.

ويأتي منصور ويأكلك.

تأكلان بعضكما دون شبع!

ثمة عمر نعيشه.. وعمر يعيشنا.

وثمة أشخاص عاشوا ثمانين عامًا أو يزيد بحسب شهادات الميلاد لكن ما عاشوه فعلا لا يتجاوز الشهرين.

العمر لا يقاس بالتجاعيد، ولا بأمراض الشيخوخة، ولا بالوصفات الطبية والأدوية ذات الطعم المر كالصبار والعلقم، ولا بعدد الشعيرات البيضاء التي تتسلل إلى رؤوسنا فنتحايل عليها أو حتى لا نتحايل بصبغها، ولابثروتنا تضخمت أو تبددت أو لم تكن أصلاً.!

العمر يقاس بمساحة السعادة في حياتنا.. ليس أكثر

لكن من يعش سعيدًا؛ لا يدرك أنه سعيد.

السعادة لحظة هاربة لا ندركها إلا بعد أن نفقدها.

وقتئذٍ نعرف كم كنا سعداء.

لكنكِ يا مروة كنتِ تشعرين بالسعادة مع منصور..

ربما كان ينتابك الإحساس بالسعادة الخالصة على فترات مقطعة في زحام هموم الحياة اليومية.

لكنكِ الآن تشعرين كم كنت سعيدة مع الحبيب الغائب. بل وتتأكدين أنك مثل التنين في الأساطير الإغريقية القديمة، لا يفقس إلا إذا وجد فارسه، وتبقى حياته مرهونة بهذا الفارس. قد يعيش الفارس إذا مات التنين، لكن التنين لا يعيش إذا أصاب الفارس أي مكروه.

يصلك خبر من "أبو منصور" أن باسم فهمي زميل منصور أبلغه أن نقابة الأطباء تحركت لبحث الاختفاء المفاجئ لمنصور ولم تعرف أين هو؟

لكنها ستندد... وتشجب... وتدين.!

خيوط الأمل عندكِ قوية يا مروة.. ثمة يقين عميق بداخلك بأن منصور أقوى من قضبان السجن الصدئة.

تعيدين كتابة مقولة بابلو نيرودا ببعض التصرف على ورقة وردية:

"في عناقك أعانق كل الوجود.. الرمل والوقت وشجرة المطر.. وكل ما هو حي يعيش كي أحيا أنا".

تضيفين:

كل ما هو حي ينتظرك يا منصور.. وسيبقى حيًا بانتظارك.

(١٢)

أكثر الناس قلقًا في السجن هو السّجان

جورج برنارد شو

قديمًا قالوا إن أربعة آثار لا يمكن رؤيتها..

أثر أجنحة النسر في السماء، وأثر الثعبان على الصخرة الملساء، وأثر السفينة في عرض البحر، وأثر الحب في قلب امرأة كانت عاشقة وشفيت من عشقها.

لكن من الأجدر أن يتم إضافة أثر خامس إلى هذه الآثار، وهو أثر اعتقال شخص ما بأمر اعتقال دون تهمة ولا قضية ولا محام ولا أي شيء، وابحث... وأراهنك إن عثرت على أي أثر.

تفشل في الوصول إلى نتائج مع الشاويش مطاوع الزيني بشأن توفير أوراق وأقلام خلسة، فالكتابة تطهر الروح وتنقذك من الجنون، لكن مطاوع أقسم بالطلاق بالثلاثة من بيته أن المسألة هذه إذا انكشفت قد تكلفه الكثير وهو رجل يسعى لتنفيذ جميع الأوامر دون نقاش وبطاعة عمياء، وآخر آماله أن يحال إلى الاستيداع وليس في ملفه ما يمنعه عن صرف المعاش التقاعدي بأمان وسلام.

تقرأ القرآن وتصلي، الأمور تحسنت قليلاً،وتم السماح لك بالخروج ثلاث مرات يوميًا إلى دورة المياه، ويمثل ذلك تقدمًا كبيرًا لم تكن تتوقعه، لكن السجن خاضع لأوامر المدير، والمدير مثل أوراق الشجر أي نسمة ضالة قد تقلبه ذات اليمين وذات الشمال..

حسنًا، الأمور تسير بشكل جيد، لم يضربك أحد منذ أسبوع، وهذا مؤشر جيد، تكتشف أنك ونتيجة لحفلات التعذيب أصبحت أكثر تحملاً، تشعر أن جسدك بات مكللاً بالصقيع، لا تملك رفاهية الاختيار.. تنتظر ما يأتي ولا يأتي.

صوت مزلاج الزنزانة يعلن أنها تنفتح عليك. الشمس تهجم عليك فجأة، والضوء يبهر عينيك، يقول لك الشاويش مطاوع إن البيه المأمور يريدك. مستسلمًا تنهض متجهًا إليه، وقارئًا آية الكرسي. يستقبلك المأمور بنفسه؛ حمدي زهران.. كانت هذه المرة الثالثة التي تراه فيها، والذكريات بينكما لا تشجع على الحنين إليها أكثر مما تدفع إلى القيء والكوابيس الليلية.. كان هاشًا باشًا ودودًا؛ على غير العادة؛ خارجًا من وراء مكتبه الباذخ ليبالغ في الترحيب بك. تبدو متوجسًا منه، لكن الفضول يستحوذ على كيانك لمعرفة سر هذا التغير المفاجئ.. يبادرك قائلاً:

– إيه الأخبار يا دكتور منصور.. عامل إيه؟

تجيب بسخرية مفعمة بالمرارة

– دكتور منصور.. انتوا خليتوا فيها دكاترة، ، كويس الحمد لله..

الأمور كلها مية مية، بس زهقان.. حاسس بالملل؛ أزهق من التليفزيون أشغل الدي في دي، أزهق من الدي في دي أشغل الكمبيوتر ألعب شوية جيمز، برضه حاسس بملل بأضطر أكلم اصحابي على الموبايل، بس لسه زهقان، أطلب وجبة كنتاكي؛ كل يوم كنتاكي؛ طب ماكدونالدز كل يوم كوك دور كل يوم زهقت بأفكر أروح أصيف في مارينا، تيجي معايا؟

يرد بملامح محايدة:

- حترجع بيتك وتنام في فرشتك وتقعد مع ولادك محمد وعمر مش كده برضه؟ وترجع شغلك وكأن مفيش حاجة حصلت دا سوء تفاهم بسيط، وبعدين إنت عارف إن الغلطات الكبيرة دي أحيانًا بتحصل.. ما تقلقش أنا حاطلبلك على حسابي وجبات عائلية كمان من كوك دور وماكدونالدز وكنتاكي لمدة شهرين علشان صحتك ترد تاني وتبقى زي البمب.. عايز تصيف وماله تصيف يا عم على حسابي مفيش مانع ده حتى الجو اليومين دول حر جدًا.

جسدك يرتج وقلبك يكاد يقفز من بين ضلوعك مثل الشخصيات الكارتونية، ويعود البريق إلى حدقتيك:

- ممكن مية؟

تقولها في نفس الوقت الذي تمتد فيه يداك إلى كوب الماء الذي يرقد على مكتب حمدي بك لتشرب الكوب دفعة واحدة كأنك تطفئ نارًا مشتعلة في جوفك.

يضغط على الجرس قائلاً:

- اشرب يا حبيبي، اشرب... يا عاشور هات واحد برتقال فريش بسرعة.

- أنا كنت متأكد انكم حتكتشفوا إني بريء ماليش في أي حاجة أنا راجل ملتزم بس مش أكتر من كده، لكن فجأة لقيت نفسي في دوامة وسجن وزنزانة وكتيبة جاية تقبض عليا كأني كنت حاقلب نظام الحكم.

- حصل خير يا دكتور منصور واحنا متأسفين.

يدخل عاشور حاملاً العصير يتناوله منه حمدي بك، ليناولك إياه قائلاً: اشرب ياعم العصير واتبسط.. أهه زي محمود سعد في البيت بيتك!

يبدو الايفيه مناسبًا فتقول وأنت ترتشف العصير في تلذذ كأنك تراقص ملكة انجلترا:

- طب إيه رأيك أطلع من السجن ويبقي ده الفاصل؟

يضحك حمدي بك بشكل مبالغ فيه قائلاً:

- انت زهقت مني والا إيه؟ إحنا لسه ما خلصناش كلامنا!

- لا أبدًا، بس بصراحة نفسي أخرج من السجن بقى، ست شهور عدوا عليا ست قرون، دا أنا أول ما حاخرج حابوس التراب.. دا الدنيا برة إيه جنة والواحد ما كانش عارف، عايز أرجع لبيتي؛ لأمي؛ لمراتي؛ لأولادي؛ لشغلي.

- ما تقلقش كل دا حيحصل.. بس أنا طالب منك خدمة بسيطة.

ترد بعفوية:

- إيه هي؟

يقول بسرعة من حفظ كلاما أعدَّ العدة لقوله:

- ما فيش؛ الجماعة اللي كانوا بيصلوا معاك في نفس الجامع.. جامع الفتح.. إحنا مسكناهم وبعدين هما غيرك، اتمسكوا في قضية.. والقضية اتحكم فيها بالبراءة وأنا عارف من الأول إنك مش معاهم.. فقلنا نستضيفك هنا عندنا.. إذا اتحبسوا خير وبركة وتطلع، إذا خدوا براءة حضرتك حتخرج من السجن وتنقلنا أخبارهم.. مرشد.. مرشد.. يعني.

تحولت إلى أخرس من فرط الدهشة، تستجمع قواك لتقول:

- بس دي مش من مبادئي ولا من أخلاقي وأنا عمري.....

يقاطعك:

- قبل ما تكمل عايز أقولك إن أخوك فتحي باشا مشرف في حجز قسم حلوان، وممكن نجيبه يشرف هنا جنبك.. دا غير أبوك، شوف بقى الراجل الكبير الطيب لما يتسحل ويتبهدل في أواخر أيامه مش حيستحمل، حيودع في أربع أيام، ولا أمك.. ونروح بعيد ليه بلاش سيرة الأم أصلها بتزعل... حرمك المصون مروة هانم القاضي.. نجيبها هنا ونكون صحبة جميعا إن شاء الله.. أنا عارف إنك بتحبها قوي، ساعتها بقى حنشوف بتحبها قد إيه.!

يبرود معجون بخبرة قصيرة بشأن إدارة الحوارات مع رجال الأمن تفكر لبرهة ثم تجيب:

- موافق!

يصيح حمدي بك متهللاً:

- كده تعجبني.. جهز نفسك.. إفراج بعد يومين يا بطل.. عايزك بقى تبدأ حياتك كأن سحابة وعدت!

يضغط حمدي بك على أحد الأجراس فيأتي الشاويش مطاوع فيومئ له برأسه في إشارة لإيداعك زنزانتك مجددًا.

تعود إلى زنزانتك مجددًا.. كنت تستغرب من أنه وطوال فترة سجنك أنت في زنزانة وحبس انفرادي، وبحسب معلوماتك المتاحة فإن الحبس الانفرادي عقوبة للمساجين المحكوم عليهم بالحبس حال ارتكابهم أي أعمال شغب أو تمرد داخل السجن.. ما يعني أنك تجاوزت مرحلة كونك متهمًا إلى الحكم عليك وإدانتك ثم قضاء فترة عقوبتك في السجن ثم ارتكاب أعمال شغب.

لكن حمدي بك أزال الغشاوة من على عينيك... إنهم يريدون أن تكون مرشدًا.. فليكن ذلك.. المهم التخلص من هذه المصيبة؛ من السجن.

ها أنت يا منصور تتلقى وعدًا من حمدي بك بأن تخرج من السجن الذي التهم روحك وجسدك وأفسد عليك نومك وصحوك ووأد

كرامتك وانتهك براءتك وسحق روحك مثل حشرة مخلفًا جراحًا في الروح وعطبًا في القلب ونحولاً في الجسد وأنينًا في الذاكرة وبعض الندوب المنحوته في جسدك لتعيد تذكيرك دومًا إن نسيت أنك كنت محبوسًا كجرذ حقير في مصيدة قذرة.

لكن لا باس.. ستخرج على هيئة مرشد.. على هيئة حمار.

المهم أن تخرج من هذا الجحيم الذي يبدو لك بلا نهاية.. أن تعود إلى مروة وإلى طفليك، وبعد ذلك فليذهب العالم كله إلى الجحيم.

كنت تفخر دائمًا أنك لا تساوم.. لكن هكذا الحياة تدفعك دائمًا إلى أن تفعل ما لا تؤمن به، والمضطر يركب الصعب.. وأنت مضطر.

تتذكر أنه حتى في عام الرمادة إبان حكم الخليفة عمر بن الخطاب ومع اشتداد الفقر والقحط والمجاعة في الجزيرة العربية انتشرت السرقة لكن تعطل حد قطع يد السارق.. لأنه محتاج، سيموت من الجوع، سرق ليبقى على قيد الحياة؛ ليحافظ على مسار تنفسه فقط.

أنت لن تسرق. لكن ستصبح مرشدًا..

لا تدري التفاصيل ولا تستعجل معرفتها فكل ما يهمك الآن مروة ومحمد وعمر وأخوك فتحي ووالدك وأمك.

تتعجب من نفسك، فأنت طبيب أسنان لديه عيادة وزوجة تعشقها وولدان مثل القمر، كان كل همك في الحياة أن تصبح أشهر طبيب أسنان في مصر وأن تحصل على الماجستير ومن ثم الدكتوراة، وأن تشترى فيللا بدلاً من الشقة التي تقطنها في مصر الجديدة،

وأن تؤمن مستقبل الأولاد برصيد محترم في البنك، وأن تعلمهم في مدارس لغات، وأن تسعد زوجتك وتنجب طفلة لتساعد زوجتك في شيخوختها ولتفرح بها أيضًا.. أين ذهب كل هذا؟

السجن اختصر كل هذه الأحلام في حلم واحد.. الحرية.. ما يحتل واجهة ذهنك وعقلك وحواسك حاليًا هو الحرية، أن تكون حرًّا، فكما أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى.. الحرية عرش نجلس عليه دون أن نشعر به.

صبرت ستة أشهر إلا أيامًا قليلة.. لكنك لا تستطيع الصبر حتى موعد الإفراج عنك والذي لم يحدده حمدي بك.. مضى يومان منذ وعده لك ولم تجر في الأرض أي مياه.. لا كثيرة ولا قليلة.

لا تنام كالعادة، تردد:

حان الآن التفكير في مستقبلي.. فالمستقبل للأحياء فقط

الآن فقط.. أصبحت حيًا

(١٣)

من المستغرب أن تكون طيبًا بينما من حقّك أن تكون شريرًا

مكسيم غوركي

يجلس فتحي في ركن منزو في الحجز.. ملابسه اتسخت وبدا الارهاق عليه بشكل مبالغ فيه ممسكًا بسيجارة كليوباترا قائلاً:

- إلا قولي يا معلم مرسى.. أنا حافضل كده لا حس ولا خبر؟ وبصراحة أنا مقلق وفيه كلاب بلدي سعرانة في موسم التزاوج بتجري في دماغ أمي.. حنخرج امتى؟ أنا مارحتش الشغل من ساعة ما اتعكشت. أي نعم دي فرصة سعيدة إني قابلتك خصوصًا إنك مش مقصر وتالفني بكافة أنواع "الدرجز" اللي في الدنيا.. فراولة ماشي.. غرقانة ماشي.. كانشة ماشي.. خوابير؛ مع إني اتعقدت منها؛ ماشي.. سجاير ماشي، وكل ده في الحجز.. وده أحلى واجب اتعمل معايا في حياتي لدرجة إني قربت استفرغ حشيش.. مش عارف إحنا بقالنا كام يوم هنا أسبوع اتنين تلاتة

مش عارف من كتر الدماغ الحريقة اللي حضرتك مظبطهالي.. لكن أنا طالب منك خدمة؟

تنتفخ أوداج المعلم مرسي الحلو ويبالغ في ذلك قائلاً وهو مجعوصًا في إحدى زوايا الحجز بجوار فتحي:

– لأ إنت بقالك تلات أيام مش أسبوع يا كاورك.. أما أنا بقى فبقالي تلات أسابيع.. المثل بيقولك أعرف صاحبك وعلم عليه وأنا عارفك ياد أنت جدع.. صحيح عضمك طري وهتيه بس جدع.. المهم أؤمرني يا غالي عليا الطلاق لو عايز دينا الرقاصة تيجي تعملك نمرة هنا عليا الطلاق أجيبهالك.

يرد فتحي ممتنًا:

– أنا بقى لا عايز دينا ولا فيفي عبده.. الموبايل بتاعي اتكمر من الصول اللي قاعد برة وأنا عايز اتطمن على أمي أكلم حد من زمايلي في الشغل ياخدلي أجازة أحسن تبقى خراب يادنيا خراب.

– لأ أنا أعرف أجيب حشيش آه.. كيميا معلهش.. سجاير.. خيري على الناس كلها، لكن المحمول بتاعك لأ.. حاجيبه إزاي؟.. بس ممكن أتصرفلك في محمول تاني غير بتاعك بس على الساعة حداشر بالليل كده على بال ما الأمور تكون سأسأت، ماشي يا كبير!

– ماشي يا معلمي.. بس الموبايل يكون في رصيد.. أنا عايز أتكلم براحتي!.

– ماشي يا شاويرس.

– ياعم اسمه ساويرس؟!

يغضب المعلم بشده مطلقًا زئيرًا وعاقدًا حاجبيه فيغير فتحي لهجة خطابه قائلاً: – شاويرس، عليا الطلاق شاويرش.

يبدو المعلم مثل طفل صغير أو مريض نفسي غريب الأطوار حيث يربت على كتفي فتحي قائلاً:

– شاويرش.. ساويرس.. مش مهم هو إحنا حنناسبه!

– على رأيك.

يدخل المعلم يده في جيب سيالة جلبابه مخرجًا جوان من الحشيش صالح للاستهلاك قائلاً:

– [illegible]ا الطلاق لتضرب دي!

– يا معلم كفاية أبوس إيدك دا أنا شربت نص طن لغاية دلوقتي!

يرد المعلم بحنق:

– دا أنا وإنت ماخلصناش فرشتين نصهم أتوزع على باقي الرجالة اللي في الحجز وإديلنا يومين مع بعض.. ما تجمد ياد علشان أيام السجن دي تعدي على خير وما تحسش بيها.. طب تصدق بالله أنا دي المرة الخمستاشر اللي أدخل فيها السجن أو الحجز وبابقى مستكنيس على الآخر.. ليه.. علشان باخرج بأصحاب ومعرفة الرجالة كنوز وطول ما أنا قاعد عامل دماغ.. والواحد حياخد إيه من دنيته إلا السيرة الحلوة والدماغ المتكيفة.. هيا حتة قطنة ونعش وتترمي تحت الأرض والدود ياكلك.

يقول فتحي في ضيق:

- والله إنت راجل عشرة على عشرة A one.. حكاية.. عدالة.. بس إنت تلفتني، مش قادر.. إنت إيه يا أخي.. سيالة جلابيتك دي مغارة مليانة مخدرات.

يغضب المعلم قائلاً:

- طب عليا الطلاق لتشرب معايا.. والا مش جايبلك المحمول.

يمتثل لأمر المعلم متناولاً سيجارة الحشيش قائلاً:

- صباح الصباح واللي جاي أحسن من اللي راح.

يلاحظ المعلم أن رفيقه لا يستقبل الحشيش على صدره فيصيح:

- أنت حتشتغلني ياد.. شد على صدرك وارجل دا أنا ابني علوي بيصطبح بخمس سجاير من دول على الريق!

يمتثل لأوامر المعلم.. لكن السعال وإحمرار العينين والدموع وجفاف الحلق أربعة عوامل تجعل صوته يتغير بشكل لحظي ليناول المعلم سيجارة الحشيش قائلاً بصعوبة:

- مش اسمه علوي.. أكيد لازم يصطبح بست جوينتات حشيش ليه لأنه علوي يعني عالي.. يعني في السحاب.. يعني عامل دماغ لوحده إحنا بنعمل دماغ علشان نعلي إنما هو عالي لوحده بيعمل دماغ علشان يبقى سفلى ينزل لنا.. وبعدين أنت اسمك مرسي تسمى علوي يا راجل.

يضحك المعلم متناولا السيجارة وقائلاً:

- شوف إنت بتتريق على ابني علوي والمفروض إني أخرطك، بس إحنا قاعدين قعدة حظ والقافية حكمت وإنت راجل ايفيهيجي.. وانا راجل عزبجي.

- عزبجي والا عربجي؟ تفرق كتير!

- يا عم الاتنين ولاد كلب!

نياهههههها!!!!!!ها!!!!!

كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والنصف مساءً.. وفجأة جاء صوت من وراء باب الحجز قائلاً:

- فتحي عبد الله.. فتحي عبد الله، فتحي عبد الله.

ينهض فتحي واقفا قائلاً بعينين متسائلتين للمعلم مرسي:

- تفتكر حيودوني فين؟

يرد المعلم بسرعة مشفوعة باللامبالاة.

- يا إفراج.. ياورا الشمس!

ينسى فتحي من استعجاله أن يسلم على المعلم مرسي الذي لا يكترث بذلك قائلاً:

- ابقى اسأل ياد.. إنت عارف الصاحب ليه عند صاحبه.. تلات حاجات مش محتاج أفكرك بيهم... هاه.. وخد موبايلي أهه كتبتهولك على علبه السجاير هيه مافيهاش غير سوجارتين بس مش خسارة فيك.

يبتسم فتحي ملوحًا بيده إلى المعلم مرسي ثم يقترب منه ملتقطًا علبه السجائر يود أن يعانقه لكن مرسي الحلو يقول:

– برة بقى، نتقابل برة.. بوس وأحضان وأنفاس واللي أنت عايزه.

ينصرف فتحي وهو غير مصدق ما حدث، كأنه كان في كابوس لم يتوقعه.

أول ما فكر فيه هو الذهاب لأمه للاطمئنان عليها، لكنه تذكر أن منظره مروع لدرجه أنه بدلاً من أن يبدد همومها حول منصور سيضاعف همومها. فكّر أن ثمة احتمال أن يكون تم الإفراج عن منصور أيضًا لكنه أدرك أن ذلك مجرد احتمال وعليه أن يكون أكثر تحوطًا.

ذهب إلى شقته الكائنة في حلوان، حلق ذقنه وأخذ حمامًا منعشًا استمتع به كما لم يستمتع من قبل، وارتدى ملابس نظيفة متوجهًا إلى أمه التي ما أن رأته حتى عانقته عناقًا يليق بالأبناء، وجد أبيه في المنزل فقبل يده واحتضنه هو الآخر، ثم.. بادرته أمه:

– مفيش أخبار عن منصور؟

في هذه اللحظة كان أبوه متشاغلاً بإصلاح التلفزيون.. إنه مهندس الكترونيات.. ترك ما في يده واستدار إليه بعينين مهتمتين متضرعتين متلهفتين..

اضطر فتحي للكذب قائلاً:

- زي الفل.. أنا كلمت واحد صاحبي في الداخلية وقاللي إنه اتاخد اشتباه وإنه طالع خلال أيام.. مش بعيد تلاقيه داخل علينا دلوقتي.

لم يعقب أحد، كانت النظرات حائرة ما بين عدم التصديق والرغبة في التصديق.

يضطر فتحي للكذب على أمه وأبيه معللاً غيابه وعدم رده على الاتصالات على هاتفه النقال بأن "الموبايل نسيته في الشغل.. وادينى أهو قدامك زي الفل"، لتعانقه أمه عناقًا طازجًا حارًا ويقول له أبوه: حمد الله على السلامة.

ثم يدخل لينام كما لم ينم من قبل.

(١٤)

يبدو لي في النهاية أنني سأسقط، ميتًا، تحت وطأة الفرح

كافكا

وحدها المصائب تبدأ بالعكس.. تتشكل من النهاية لتصل إلى البداية.. في مسار مقلوب تبدأ كبيرة بنار وحرائق وصخب وضجيج وآلام، ثم تصغر رويدًا رويدًا.. تخبو؛ إلى أن تخمد تمامًا. صحيح أن المصائب عندما تأتي لا تأتى فرادى وإنما كتائب.. كتائب.. لكن الأكثر صحة أنها لا تدوم إلى الأبد.. فحتى المشكلة الكبرى؛ مهما كانت كبيرة؛ يأتى عليها يوم وتنتهى.

وها أنت الآن على أعتاب مغادرة سجنك واستقبال الفرح.. مستعدًا لأن تفعل أي شيء لكي لا تعود إليه مستقبلاً.

تودع فيه كل شيء قذر.. العسكر.. التعذيب.. الجدران.. الرائحة القذرة.. جردل البول.. العتمة الفادحة.. عبارات الذكرى وبعض الشعارات المدونة على الجدران بحروف ملتوية.. العروسة الخشبية المخصصة للصلب.. قاعات التعذيب.. الأسلاك التي يتم توصيلها بأماكن حساسة لاغتيال الرجولة.. الصدمات الكهربائية..

السباب القذر... باختصار أنت تودع كل ما ينتمي إلى عالم البذاءة والصفاقة والوضاعة والرعاع.. أنت تودع مستودعًا يليق بالحيوانات ولا يمت للإنسانية بصلة.

عندما أبلغك الشاويش بصدور قرار بالإفراج عنك احتضنته، ناسيًا أنه تفنن في ضربك وتعذيبك ولكزك وشتمك، لكنه محا كل ذلك عندما أبلغك بنبأ الإفراج وكأنه أعاد إليك الحياة مجددًا.. وأحيانًا نقبل اليد التي تغتال.

تتسلم هاتفك النقال وملابسك التي تم القبض عليك بها، وهي في الحقيقة ملابس مخصصة للمنزل عبارة عن تريننج سوت خاص بزوج عمتك.. لكن الحمد لله.. وإن اقتضى الأمر أن تمشي في الشارع عاريًا فلا تمانع، المهم أن الجحيم مرَّ.. مرَّ بسلام.. مرَّ مخلفًا جراحًا وندوبًا.. لا يهم، المهم أنه مرّ.. مرَّ بعدما عقدت اتفاقًا مع جلاديك بأن تكون مرشدًا.. لا يهم.

في طريقك إلى منزلك الكائن في مصر الجديدة تفكر وأنت داخل التاكسي في مروة.. لا ريب أنها ستكون أروع مفاجأة في حياتها.. ستتسلل بخفة وتفتح باب الشقة بالمفتاح الذي ما زال في حوزتك ثم تحدث المفاجأة.. قبلة هنا، وقبلة هناك.. جائع أنت.. وهي وجبتك التي تُشبعك ولا تشبع منها أبدًا.. ظمآن أنت إليها كما لم يحدث من قبل.

تشعر أن الطريق طويل؛ أطول من اللازم.. يروق لك التفكير في النظرية النسبية لألبرت اينشتاين فتفسيرها بسيط للغاية إذا كنت تجلس إلى امرأة جميلة لا تشعر بالوقت، أما إذا كانت دميمة فأنت تستعجل الوقت، وهذا باختصار ما يحدث لك حاليًا.. تستعجل الوقت مضى نحو ستة أشهر إلا قليلا... فحنانيك، اصبر.. نصف ساعة وتصل.

يحادثك سائق التاكسي الذي اتفق معك على ستين جنيهًا لقاء هذه "التوصيلة" الطويلة فلم تمانع قائلاً:

– وانت كنت محبوس بقى بتهمة إيه ياباشا؟ دا انت حتى حليوة وشكلك محترم ومش وش إجرام.

تدرك أنك إذا أقسمت له على أنك طبيب أسنان لن يصدقك، وإذا رويت له قصتك قد يحول مسار الرحلة من طرة إلى الخانكة حيث المقر الرسمي لمستشفى المجاذيب.. ترد عليه:

– خد بالك من الطريق.. أنا حاريح شوية!

يقول لك السائق:

– براحتك ربنا يكون في عونك.

ثم يمد يده اليمنى إلى الكاسيت ليشغل أغنية عبد الباسط حمودة الشهيرة "أبص لروحي فجأة لقيتني كبرت فجأة.. تعبت من المفاجأة ونزلت دمعتي"... تطلب منه أن يخفض صوت الكاسيت ثم تستلقي على الكرسي الخلفي للتاكسي قائلاً:

- لما نوصل الكوربة قولي.. أقصد صحيني.

يستجيب إليك السائق قائلاً:

- ماشي يا باشا.

تقول لنفسك بصوت خافت: "كله بقى باشا سواقين التاكسي والميكروباص، العجلاتية، القهوجية، السباكين، الجزمجية، والحرامية.. بكرة يقولولهم يا دكاترة!"

بعد فترة يصطدم بأذنك صوت السائق قائلاً:

- وصلنا ياباشا الكوربة، فين بقي بالظبط؟

- أيوه هنا.. ولا حاوصفلك ولا حاجة.. هنا.. اركن يمين.

تنزل من التاكسي، وتطلب من سائقه أن ينتظرك ريثما تحضر له نقودًا، يتفهم الرجل الأمر.. في مدخل العمارة لا تنتظر المصعد وإنما تصعد السلم ثلاث درجات ثم ثلاث درجات هكذا دفعة واحدة، تصل إلى باب شقتك، تتأمل القطعة الخشبية المنحوت عليها اسم "منزل الدكتور منصور عبد الله طبيب أسنان".

برفق وتمهل جاهدت لتجيد فتح الباب لكى لا يصدر صريرًا فيفتضح أمرك ويفسد عليك المفاجأة..

لا أحد في الصالة.. حسنًا، مؤكد أنها نائمة.. محمد وعمر ما زالا في المدرسة.. الساعة الآن العاشرة صباحًا..

تدخل برفق إلى حجرة النوم، تجد مروة نائمة مثل الملائكة، تقترب منها إلي حد الملامسة.. تشم أنفاسها التي كانت تحرسك في

محنتك، عطرها الذي لم يفارقك.. ثم تقبلها على جبهتها.. وتمسح على رأسها في حنان، تعلم جيدًا أن أي حبيب وحبيبة يظنان أنهما النموذج الأكثر حبًا في العالم رغم أن هناك مثلهما نماذج لا نهائية في العالم، لكن لحظتئذ تشعر أنك ومروة متفردان.. أنكما الأكثر حبًا وروعة وسعادة في العالم...

تقترب منها برفق..

ثم تقبلها.

تقفز مروة من الفزع.. تنتفض صائحة

– آه مين.

تفتح عيناها.. تراك.. تقفز واقفة على السرير صائحة

– منصوووووووووووووووووووووووووووووووووور

حبيبي.. كنت عارفة إنك جاي.. كنت باحلم بيك واحشنى واحشنى قوي، انت كويس؟ احكيلي عامل إيه، والله والله قسمًا بالله كنت عارفة إنك حترجعلى، أصل بص مستحيل أنا وانت نفترق، حصلت حاجات كتير قوي في غيابك حاحكيلك عليها تصدق أنا من غيرك ولا أسوى والله ولا أسوى، أنا مش مصدقة، أنا أكيد باحلم..

.. وتنفجر في البكاء.

تصعد إلى السرير واقفًا وتحتضنها.. وتقبلها قبلة عميقة مطوقًا خصرها.. وعندما تشعر بثقل على كتفيك تكتشف أن مروة انتابتها إغماءة... إذن تلك اغماءة الفرح.

تحضر قنينة عطرها، وتمرره على فمها الروماني الأشم.. تتحرك مروة.. تفتح عينيها.. تراك.. تصرخ:

- بحبك.. بحبك قوي.

ترد:

- وانا باموت فيكي.

وتغوصان في قبله طويلة..

تكتشف أن نشوة اللقاء انستك سائق التاكسي الذي ينتظرك.. تحصل على مائة جنية من مروة وتعطيها إلى السائق تاركًا له الباقي، ثم تعاود الصعود إلى مروة مجددًا.. تقبلها.. ثم تستأذن منها لدقيقة لتبلغ أمك على الهاتف أنك خرجت من السجن وعدت إلى الحياة مجددًا، تطلق أمك زغرودة فرحة، ويطمئن أبوك عليك متمتمًا: الحمد لله إنك بخير.

تعود إلى مروة التي تتأملك وكأنك غبت عنها سته قرون.. تقبلها قبلة توازي أطنان العذاب التي تجرعتها على مهل، ويتحاور جسداكما بلغة العشاق.

(١٥)

كل شوقٍ يسكن باللقاء لا يعول عليه

محي الدين بن عربي

الحزن يليق بالموتى والأحياء في آن واحد، لكن الفرح الخالص لا يعرفه إلا الأطفال؛ ربما لأنهم سر الله في الأرض، أما الكبار رجالاً ونساء فلا وجود للفرح الخالص عندهم، ثمة فرح ممزوج بالخوف أو الدهشة أو تحت وقع العقاقير التخليقية والمخدرات، وحتى هذا يأتي مشفوعًا بالخوف.. لماذا؟ لأن الإنسان حيوان خائف بطبعة.. فمن لا يخاف ليس إنسانًا!.

يخاف المرء دائمًا مما يجهل، ويخشى المستقبل، ثم أن ثمة عقدة لدى الإنسان منبعها المتعة والألم، إنهما متلازمان سببًا ونتيجة؛ سواء كانت المتعة قبل الألم أو بعده، لا فارق.

والفرح شكل من أشكال التعبير عن المتعة، ولذا فإنه لا يأتي خالصًا أبدًا مهما تعالت الضحكات وابتسمت الوجود.

بيت منصور الكائن في مصر الجديدة يضم حاليًا أمه وأباه وأخاه فتحي وبعض الأصدقاء والجيران.. ومروة التي تلتصق به مثل

هرة تتمسح في صاحبها ولا تحول عينيها من عليه كأنها تريد أن تعوض غيابه عن ناظريها أو ربما تسعى لأن تشبع منه قبل أن يغيب مجددًا.. كانوا كلهم فرحين بعودة الغائب لكن يختبىء وراء ستار الفرح قلق ومخاوف حول إمكانية تكرار ماحدث ليعود الغائب العائد إلى الغياب مجددًا!. لم يرد منصور أن يحكي لأهله عما حدث على أساس أنها "غمة وانزاحت"، أزمة وانقشع غبارها. ثم أنه إذا روى ما تعرض له في السجن سيزيد مخاوف الجميع.. إنه وقت الفرح.. فلماذا نتفنن في إفساده بحماقات الحقيقة؟.

يقول أبوك وسط الضحكات:

- وانت حترجع شغلك أمتى يا منصور؟

ترد بسرعة:

- بكرة إن شاء لله.

يعلق فتحي:

- شوف رغم إني اتسحلت بسببك ياحاج منصور ونمت مع الصيع والحثالة على البورش، لكن مفيش شغل ليك يا دكتور أنا حجزتلكم في شرم الشيخ الدنيا صيف وهناك تروح أنت ومروة والأولاد أسبوع حكاية، وبالمرة تجددوا شهر العسل!

يرد منصور:

- أهم حاجة الحكومة، توافق أنا بالنسبة لي معنديش مانع، قعدنا ست شهور بعيد عن الشغل نخليهم ست شهور وأسبوع كمان فوق البيعة في شرم الشيخ.

تضحك مروة قائلة:

- الحكومة بتحب الشعب وفرحانة إنه رجع ليها.. موافقة طبعًا وبالإجماع!

يقطع الحديث الوالد الذي يقول موجهًا حديثه إلى فتحي:

- وانت اتسحلت انت كمان يا فتحي باشا.. الله الله دا العيلة كلها بقت سوابق.. احكيلنا بقى إيه اللي حصل؟

ويحكي فتحي القصة مستخدمًا تقنية المونتاج لأغلب تفاصيلها والجميع يستمعون على وقع أكواب الشربات والمياه الغازية والحلوى التي تتراقص على مائدة طويلة في منتصف الجلسة.

تقول أمك التي كانت فرحة لدرجة أنها لم تقل في الجلسة إلا..

- أنا شايفة يا منصور أن اللي حصلك والأيام السودة اللي أنت واحنا شفناها دي تخليك لازم تحلق دقنك دي،وإذا كان على الصلاة صليها في البيت!

يخيم الصمت على الجميع، لكن منصور يرد:

- ياريت المشكلة مشكلة لحية وصلاة.. اللحية دي سنة عن الرسول عليه الصلاة والسلام وأنا راجل ملتزم وملتزم يعني أصلي في الجامع مش في البيت، وبعدين كل اللي شفته ابتلاء من عند ربنا سبحانه وتعالى وربنا بيختبر ابنك.. نقول لأ بالعكس أنا أجري كبير عند ربنا وربنا حيجعل كل ده في ميزان حسناتي إن شاء الله.

- بس يابني!

يقطع الحوار فتحي قائلاً:

- نقسم البلد نصين.. خلاص خففها شوية يا عم منصور وبلاش عرق الصعايدة دا!

يقول منصور ضاحكًا:

- قال يعني الواد معندوش عرق صعيدي.. ماشي.. هي أصلاً مش طويلة.. بس نخففها.

قبل انتهاء الحفلة، يسأل منصور أباه عن أخبار حسن الشاذلي زوج عمته ويقول إنه يعتزم زيارته والاطمئنان على ولدي عمته الصغيرين.. كان في الحقيقة يشعر بالذنب لأنه كان سببًا في موتها لكن أبوه يقول له:

- انت راجل مؤمن، سيبك من التخاريف دي، بقى أنت اللي بتقول كده ايش حال لو ماكنتش انت الشيخ بتاعنا.. دا قدر و"لو كنتم في بروج مشيدة" لا حيلة في الرزق ولا شفاعة في الموت ولو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. ثم أنه لكل أجل كتاب وهي أجلها خلاص انتهى. انت بس ادعيلها بالرحمة، هي محتاجة دعواتك، منك آنت بالذات.. أنت كنت بتحبها قوي، وهي كانت بتحبك. ادعيلها يا منصور يا بني، ادعيلها يا حبيبي.

بعد انتهاء حفلة الاحتفاء بالغائب العائد ينزو منصور في أحد أركان شرفة منزله باكيًا.. لا يدري إن كان يبكي رثاءً لحاله أم يبكي حزنًا على عمته. وعندما دخلت عليه مروة مسح بكلتا يديه الدموع وتظاهر بالمرح قائلاً:

– بس انتي احلويتي قوي وانا غايب.. للدرجة دي أنا كنت كابس على نفسك!

– يا سلام، دا أنا كنت ميتة وانت بعيد عني.. تعرف وانت جنبي باشتاقلك، إيش حال بقى وانت بعيد عنى..

على فكرة أنت مقعدتش مع محمد وعمر لغاية دلوقتي اندهملك؟!

– ماشي!

يأتي الطفلان فتلاعبهما كالمعتاد، لكن مروة تقطع اللعب قائلة:

– ها.. حنروح شرم؟

– شرم إيه.. شرم الشيخ.. آه استعدي.

في شرم الشيخ كنت مع مروة وعمر ومحمد لا تعرف لماذا لم تستمتع بوقتك كما ينبغي، ربما لأنك مازلت تشعر أنك في السجن، أو ربما لأن كوابيس السجن مازالت تداهمك، وربما لأنك لا تجيد النسيان.

في خليج نعمه حيث يستقر الفندق الذي تقيم فيه برفقة عائلتك تقول لك مروة بنعومة فور دخولكما غرفتكما:

– اقرأ أنا كتبت إيه في غيابك!

يقرأ فتحي الخطابات التي كانت تكتبها مروة في غيابه، تلك الخطابات التي كانت تكتبها بدمها إلى الحبيب الغائب الذي لا تعرف مكانة ثم يبكي حتى تتبلل أوراق الخطابات. تحتضنك مروة قائلة:

- مش الحب بيخلي الإنسان العادي شاعر.. والشاعر مجنون.. افرح أنت كنت حتخليني شاعرة.. يعني كنت ممكن أقعّد نص شعراء البلد في بيوتهم.

- انتي شاعرة قلبي.. عارفة فيكتور هوجو كان بيقول "في قلبي زهرة.. لايمكن لأحد أن يقطفها"، وانتي بقى زهرة قلبي.

تكتب على ظهر أحد خطاباتها التي قرأتها:

إلى حبيبتي...

كان من المفترض أن أقرأ خطاباتك في السجن

لا تعرفين معنى هذا.. السجن ولا أود أن تعرفيت

لكن الله جعلني أقرؤه ذات مساء بأذن برفقتك نستنشق معًا نسيم الحرية

مشاعرك طازجة وحبك جارف

اتعبني السؤال: من أين تستمدي كل هذا الحب؟

عندما تضنيني الحيرة أقول:

لا تسأل الزهرة.. لماذا؟.. إنها تزهر لأنها زهرة .

تهمس إليك مروة قائلة:

- منصور فيه موضوع عايز أكلمك فيه، بس اوعدني تقول الحقيقة!

- خير؟!

- انت فعلاً زي ما قلت قدام الناس في حفلة رجوعك بالسلامة محصلكش حاجة ولا تعذيب ولا أي حاجة؟

ترتبك قائلاً: هه؟!

تحتضنك مروة.. متحسسة ظهرك بيدها اليمني قائلة

- أمال الآثار اللي على ظهرك دي إيه؟

وتروي لها القصة.

(١٦)

معظم الناس هم أناس آخرون...

آراؤهم آراء شخص آخر.. حياتهم تقليد، وعشقهم اقتباس

أوسكار وايلد

دخان الشيشة يتصاعد كأفعى تتلوى في الهواء.. كان فتحي ينفثه بشده على مقهى قصر الشوق في شارع عباس العقاد بمدينة نصر منتظرًا صديقة سطيحة الذي كان هاتفه النقال مغلقًا.. يبدو فتحي متململاً في جلسته، وفجأة صاح:

- يا أسامة، غيّر الحجر!

يندفع أسامة صبي المقهي بسرعة لتغيير الحجر، "قص البرج" هو النوع المفضل لفتحي الذي يؤكد دائمًا أن المصريين استوردوا كل شيء لكنهم يصدرون المعسل، وفي لحظة ملامسة أسامة لرأس الشيشة لتغيير الحجر وصل سطيحة قائلاً:

- بيس يا برنس.

- انتي كنتي فين يا سوسن مش حتبطلي شقلطة.. لسة مخلصة نمرتك والا إيه؟

– سوسن!.. هى دي أخرتها.. سطيحة وفي رواية أخرى المليجي يتقاله ياسوسن.. فلتغربي يا شمس، فليسجل التاريخ هذه اللحظة.. عليا الطلاق لو حد غيرك قاللي الكلمة دي كنت حذفت كلمة دكر من البطاقة.. على العموم كفارة يا نجم.. بص اطلبلي كرسي معسل علشان نظبط الكلام.. واحكيلي بقى الحوار الفكسان بتاع الحجز والبورش والمرتزقة، أنا عايز اسمع القصة دي لأنى مارسيتش منك على التيتا ومفهمتش الزيتونة لما كلمتك على الموبايل.

يستسلم فتحي طالبًا لصديقه حجر زغلول؛ فهذا هو الصنف المفضل له؛ قائلاً:

– عارف ياد لو كانوا ضغطوا عليا كنت حابعتك يا صاحبي.. كنت حاقول أنا عامل تنظيم وانت الأمير بتاعنا وكنت حتتنفخ معايا يا صاحبي، حيحطوا الخرطوم في" الاشي" ورجليك الجوز واوعى الاراجوز وهاتك يا نفخ.. علشان نبقى صحبة جمعا إن شاء الله.

– ليه.. هم حطولك الخرطوم في الاشي؟!

– إنت عبيط ياد.. دا أنا كنت اقلبها مراجيح!

– كده يا برنس حتوز عليا.. ماشي.. مانا عارفك ممكن تبيعني قبل حتى ما نوصل عند أول ناصية.. مبدأك في الحياة: عيش ندل تموت مستور.

نياهااااهاهاهاهاهاها

يحكي فتحي لسطيحة ما حدث له في الحجز بالتفصيل.. وبعد أن يفرغ يبادره سطيحة:

- فكك من الحوارات دي.. أنت ياد قالب البنت اللي اسمها رحاب دي على الآخر ليه كده دي خوتت دماغ أمي.. كلتلي دماغي والمصحف شتمتها قال إيه دا فتحي مابيردش.. دا فتحي قافل الموبايل.. دا فيه جرس وماحدش بيرد.. هو أنا إيه خلفتك ونسيتك؟

- ياعم سيبك منها دي بنت تعبانة ملة، وعبيطة في دماغها وقافشة على الجواز.. ماشي اعملي بقى زي ما النسوان اللي عايزة تتجوز بتعمل قولي حاضر ونعم اسمعى الكلام لكن مفيش فايدة هي عايزة تحب وتتحب زي صاحباتها، ولأن صاحباتها بيعملوا كده لازم هي كمان تعمل كده copy وpaste.. ولعلمك أنا من ساعة ما طلعت جاللي ييجي خمسميت مسج منها وربعميت اتصال بس خلاص فينيتو.. فكك بقى، مش طالباها خالص يا معلم.

- بس دا ماكانش كلامك في الأول يا برنس دا أنت كنت هاري نفسك دباديب وحوارات وخروجات واتصالات ومكالمات وحركات وكلمات ولا كاظم الساهر.. وكانت قصتكم خالدة كده زي كده قصة صالح وصالحة.. مسعده وزغلول!

- اتريق يا بلحة اتريق.. بص هي البنت فورة.. وتكة.. أصلي.. مزة جامدة مفيهاش غلطة بس اقولك على حاجة إنت لما تكون

ماشي في الشارع ممكن تلاقى محل حاطط بدلة أول ما تشوفها تخطفك وتشتريها وتمشي وممكن تدخل نفس المحل تقلب وتقلب وتقلب حتلاقى ميت بدلة أحسن.. الأفضل ليك إيه.. لما شفت والا لما دخلت ونقيت.. أكيد بقى لما دخلت ونقيت.. وبعدين المثل بيقولك: تعرف فلان آه، عاشرته لأ.. يبقى ما تعرفوش.. واللي ما يعرفش يقول عدس.. أول ما تشوفها تخطفك لكن لما تقرب منها تكتشف إن فيها كلاكيع وعقد الدنيا كلها أنا عارف إننا مش ملايكة ومليانين عقد.

- يعني ليس كل ما يلمع ذهبًا.

- إيه ياد الثقافة دي لأ إذا عايز تقول حته ثقافة بقى ممكن تقول "من على بعد ٣٠ قدم بدت وكأنها امرأة راقية.. من على بعد ١٠ أقدام بدت وكأنها شيء مصنوع ليرى من على بعد ٣٠ قدم".! وبعدين عايشالي في دور شخصيتي وسلوكي والحوارات الحمضانة دي وياريت عندها شخصية هي بتسمع من صاحباتها إنهم بيعملوا كذا وكذا عايزة تعمل زيهم وبس.. قلت ميت مرة مفيش فيس بوك.. قافشة تستمر في حوارات الفيس بوك والتعليقات الفاكسانة وضايفالي عيال من اللي بتضرب امينو اسيد وبتتصور عريانة وكل أصحابها رجالة.. والتعليقات بقى اللي يقولها إنتي حلوة قوي إنتي جميلة إنتي حبيبتي وأي حد تضيفه، وأقولها يابت شيلي صورك دي ممكن تتركب على أي حاجة

وتتفضحي تقولي طب ما كل صاحباتي عاملين كده اشمعنى أنا يعني والا هي جت عليا.. والمصيبة اني لما باسيبها بترجع تاني تعيط وتسوق عليا طوب الأرض وبعدين ارجعلها وبعدين تحصل نفس الحوارات من نفس النوع مرة على اللبس ومرة على طريقة التعامل مع الرجالة ومرة على الدماغ والتفكير.. وأسيبها وترجع تعيط وهكذا. ومفيش فايدة أنا اعصابي ما بتستحملش وما بعرفش أفوت.. أصل اللي يفوّت في الصغيرة يفوّت في الكبيرة يا غالي.

- طب إنت ماحاولتش معاها ليه؟

- يابني انت حمار دا أنا بقالي سنة ونص باحاول مفيش فايدة يا برنس، اللي خانق أمي إن البنت من الناحية المنطقية طالما راسمة على جواز المفروض "تسجدني" وتاخدني على قد عقلي وتشتغلني وتقول نعم وحاضر لغاية ما اتجوزها وبعدين.. ألبس يا معلم.. لكن هي ماشية ورا صاحباتها وعايزة تعمل زيهم، انشالله تولع بجاز هي وصاحباتها في ساعة واحدة دي فقعت أمي ياراجل. وبعدين هي دماغها صغيرة وأنا دماغي أصغر ومابفوتش ومبروم على مبروم ما يلفش.. كيتو مات وكله حي.. يا صاحبي.

- على العموم النسوان دلوقتي كلهم عايزين ضرب نار هم أصل الداء سيدنا آدم نزل من الجنة بسبب حواء، واللي بيسرق بيسرق علشان ست، واللي بيخون بيخون مع ست، واللي بينام بينام مع ست، واللي بيقتل بيبقى غالبًا السبب ست.. واللي زاد وغطى

الفيس بوك وحواراته الحمضانة، أنا كرهت أمه، إنت عارف نسبة الطلاق ارتفعت تلاتين في المية بعد موضوع الفيس بوك، الرجالة بيشكوا في نسوانهم واللي بيعرف إن خطيبته ماشية مع واحد واللي يعرف أن أخته دايرة على حل شعرها. افشخانات ياصاحبي.

- ياد أنت عبيط دا النسوان نعمة اللي ما يشوفهاش يعمى!

- أساسي يا صاحبي ما هي دي المشكلة باختصار.

- أنا بعد الحوار الحمضان بتاع الحجز دا بافكر أتجوز فعلاً.

- كويس، بس في الزمن دا يا برنس إذا ربنا كرمك بواحدة استعمال خفيف ومش راشة دواخل.. يبقى حظك عنب!

- عنب وفل الفل كمان يا برنس بس هي فين دي!

- طب باقولك إيه إنت ياد مش أبوك وأمك من المنوفية اسقط عندكم البلد وهات بنت خام من الفلاحين والمصحف حتبقى حلاوة، وشكّلها إنت على كيفك.

- إنت عبيط ياد؟!.. آخد بت فلاحة تقعد تقولي آنى ومش آني وروخر كأنها حتتكرع في وشي، دا المثل بيقولك الفلاح فلاح تأكله تفاح يتكرع جزم.. جزم عارف يعني إيه جزم.. وبعدين اللي إنت بتقوله ده اشتغالة معرفش مين اللي حطها في دماغ أمك، لعلمك من الناحية العلمية الإنسان ابن بيئتة يعني الفلاحين متأثرين بالمجتمع الفلاحين يعني إيه.. طبعا دا كلام علمي حاضطر انزل لمستواك علشان تفهمه.

- يعني أنا حمار؟

- أساسي.. المهم أكملك، يعني الفلاح بيشوف إيه بيشوف حيوانات والحيوانات بتعمل إيه بتتصرف بشكل غريزي.. بالغريزة وعلشان كده بيتأثروا بيهم وتصرفاتهم غرائزية.

- فاكر ياد.. لما كنا بنقف في الدور الثالث في كلية التجارة أيام الجامعة ونتراهن على مين فينا اللي يعرف أشكال الفلاحين وكنت أستاذ وبتعرفهم دايمًا، إلا قولي إزاي؟

- يابني الموضوع مش كيميا حتلاقي الشنب الأصفر والشعر اللي متاخد على خوانة فجأة على جنب كده والبناطيل اللي مرفوعة لغاية الرقبة زي عبد الباسط حمودة والقمصان الفسكوز المقفولة وكوتشيات باتا اللي لازم يطلعوا اللسان بتاعها برة البنطلون قال يعني بيروشوا، والكاراكترات دي كلها كنت باشوفها في الجامعة وكانوا ساكنين في الـ M. G

- قصدك المدينة الجامعية.. صح يا برنجي.. يعني إنت لا عاجبك بتوع القاهرة ولا عاجبك الفلاحين، أمال إنت عايز إيه بالظبط؟

- عليا النعمة ما عارف أنا عايز إيه.. أنا بعيش اليوم بيومه.. ملل في الشغل الصبح وضرب أو قهوة بالليل مع شوية نت.. وشكرًا.. وإنت ياد ياسطيحة مش ناوي تتجوز؟

- وأجيب منين مصاريف الجواز.. أنا كده مية مية عايش علشان استكنيس وأمتع نفسي.. عمرك شفت حد مات قبل كده من كتر

المتعة.. مستحيل، وكده فل قوى.. وبمناسبة الضرب.. اضرب دي فراولايه حكاية!

يأخذ فتحى من سطيحة قرص التامول قائلاً:

– كنت عايز اضرب فراولايتين مع ترامادول لما كنت في الحجز علشان لو اتحط عليك واتعمل معاك الغلط.. واتعفقت.. تعرف تألخ وتقف في وش المدفع مهما اتضربت مش حتحس بحاجة.

يرد سطيحة:

– بسيطة يا نجم.. نعمل كورس كيميا مكثف علشان لو اتقفشت واتحط عليك تبقى مستعد وعلى رأي بتوع الكشافة: كن مستعدًا.

– لأ ماليش تقل على الكيميا، دماغها دماغ بوابين، وعينيك بتسقط ولسانك بيتقل ماليش فيه.. أنا بس باضرب معاك تفاريح!

يضيء هاتف فتحى النقال فالرسائل النصية القصيرة تتواصل والاتصالات لاتتوقف من رحاب، وهو كان مستعدًا عبر تغيير وضع هاتفه إلى صامت، فيضطر لاغلاق هاتفه النقال قائلاً:

– يادي القرف.. البت محسساني إنها مراتي.. جواز إيه وقرف إيه.. الله يلعن أبو الجواز على أبو سنينه.

يرد شخص مجهول يجلس بجوار فتحي وسطيحة على المقهي قائلاً: الله يلعن أبوه ميت مرة.

ينفجر فتحي وسطيحة ضاحكين بصراخ هيستيري.. يدفع فتحي الحساب وينصرف برفقة صديقه.

(١٧)

ليس من شيء يثبت شيئًا ما في الذاكرة...

مثل الرغبة في نسيانه

ميشيل دي مونتين

إذا نمت مع الكلاب فسوف تستيقظ مع البراغيث...

هذه هي الحقيقة بامتياز.. لا تستطيع أن تنام بشكل جيد رغم عودتك لعملك الذي تعشقه وحبيبتك التي تظلل عليك كشجرة وارفة وتحرس أنفاسك كملاك.. وولديك؛ هديه الله إليك.. مازلت لا تشعر بالأمان.. تلك هي الأزمة الحقيقية.

لا تكمن المشكلة في أنك تتذكر فقط الكلاب الذين عاشروا براغيث تواصل لدغك كالأفعى في نومك؛ وأحيانًا في صحوك.. لدغات لا تميت لكنها أقسى من الموت، تريد أن تنسى فتتذكر أكثر..

النصف الآخر من المشكلة هو اتفاق المرشد الذي عقدته مع حمدي بك ولا ريب أنه ينتظر تنفيذ الاتفاق. لست خائفًا بشكل كبير، فالعمر واحد والرب واحد.. ثم أنه لا داعي للخوف من صوت الرصاص، فالرصاصة التى تقتلك لن تسمع صوتها.

منذ استرددت حريتك لم تذهب إلى الصلاة في مسجد الفتح، رفاقك الأربعة من الإخوة الذين يصلون في مسجد الفتح زاروك في منزلك فرحبت بهم واستقبلتهم بشكل جيد، لكن ثمة غصة تلتهم حلقك ببطء لم تستطع تثبيت عينيك أثناء الحديث الذي دار سريعًا، لا يوجد شيء ذو بال في الحوار، كان مجرد كليشيهات ترحيبية معتادة، لكن القاسم المشترك كان الدعاء لك بالثبات والتأكيد على أن ما يتعرضون إليه وتتعرض أنت إليه من قمع وتعذيب سيكتبه الله في ميزان حسناتك، كما أن النظام بات أعمى يستخدم سلطته بسخاء مجاني في اعتقال الجميع متسلحًا بقانون الطوارئ.

الندم هو الخطأ الثاني الذي نقترفه...

لكن أين هو يا ترى الخطأ الأول؟

ليتك ارتكبت الخطأ الثالث حتى.. على الأقل كنت أرضيت شهوة الخطأ.. فالخطأ أي خطأ.. شهوة.. ومتعة.. ولذة!

وإلا فما هو تفسير ملايين الأخطاء التي يرتكبها الناس يوميًا؟

ولماذا قضم سيدنا آدم التفاحة في الجنة فحكم على أولاده بالشقاء في الأرض؟... وما تفسير تأكيد نيتشة أن "معظم العادات السيئة أدوات تساعدنا على الحياة"؟

لكنك للأسف لم ترتكب خطأ ولم يكن لك عادات سيئة، بل أن مشكلتك أنك بلا عادات سيئة، لا ريب أن أخطاءك تفوق عدد شعر

رأسك مثل أي إنسان، لكن في موضوع المرشد هذا أنت لست مخطئًا، فلم تفعل شيئًا يستوجب الاعتقال من الأساس، ربما تكون أخطأت في قبولك المساومة ولكن لم يكن أمامك خيار آخر. كنت وراء الشمس حيث العتمة الفادحة القاتمة. والآن أنت تحت أشعة شمس الحرية تداعبك كل صباح... لا يهم إذا أخطأت أم لم تخطىء فالإنسان يميل للخطأ بطبعه. والأفضل عند ظهور الثعبان السام عدم الانشغال بمعرفة من أين ظهر؟

تخنقك التساؤلات.. ولا تعرف النوم.. تلجأ للحبوب المنومة فتزيدك أرقا... لا يمكن للجائع أن ينام.. ومستحيل على الإنسان القلق أن يغمض جفنيه.

الحياة سلسلة من الأخطاء والخطايا وقطار ذو عربات متتابعة من القلق.

تلك إذن الصفقة.. قال حمدي بك إنه سيتصل.. ولم يتصل حتى الآن. أسبوع منذ خرجت من السجن أو بالأحرى المعتقل ولم يهاتفك أحد، لا حمدي بك ولا أحد من طرفه.

المساجين السياسيون يحبون دائمًا أن يميزوا أنفسهم عن المساجين الجنائيين بأنهم معتقلون وليسوا مساجين، مع أن الظروف تكاد تكون متطابقة مع اختلاف المسميات؛ إن لم يكن حظ السياسيين أكثر رداءة وسوءًا...

ملعون.. ملعون.. ملعون.. السجن أوالمعتقل..

مروة تلاحظ اضطرابك ونومك المتقطع وتكاسلك عن الذهاب إلى عيادتك أو المستشفى، لكنها لا تعلق.. تملأ الأرض حبًا وعشقًا وشوقًا لا ينقطع، وتسعى للتخفيف عنك.. لكنها لم تنجح تمامًا في إخفاء قلقها عليك.

تغرق في الحيرة... هل ستعمل جاسوسًا لحساب الأمن؟.. هل ستخون مبادئك؟.. هل ستتجسس على زملائك؟!

الأمن يتوارث لعبة التجسس بامتياز... إبان العهد الناصري كان التنظيم الطليعي يعمل كتنظيم سري، كانت الدولة أمنية تمامًا لديها جميع المؤسسات شرطة وجيش وشعب مقهور.. تسيطر على الجميع، ورغم ذلك تلجأ إلى تنظيم سري رغم كل هذا وهذا يكرس مقولة "ارتكب جريمة وسيتحول العالم من حولك إلى بيت من زجاج" كما أن " اللص يرى خلف كل شجرة شرطيًا".

كان الجميع يتجسس على الجميع.. إذا استيقظ عضو التنظيم الطليعي أو حتى منظمة الشباب وقابل أحد جيرانه ولم يقل له صباح الخير يكتب عنه تقريرًا.. ويذهب الجار وراء الشمس.

أساتذة جامعات وأطباء ومحامين أصبح معظمهم وزراء وفي الواجهة حاليًا احترفوا كتابة التقارير.. ومعظمها كيدية.. ومعظم من كتبوها يقال إنهم رموز.

واستمرت كتابة التقارير في عهد السادات.

والآن هي مستمرة أيضًا.

يبدو أن العقلية الأمنية في مصر ما زالت تحافظ على جذورها وأنه حان دورك في كتابة التقارير.

تتذكر أنك أيام الجامعة لم يكن لك أي نشاط سياسي واستمر ذلك حتى الآن، فلماذا تدس السياسة أنفها في شؤونك؟

تبنت الدولة استراتيجية تجفيف المنابع عبر الحرس الجامعي الذي لم يكن موجودًا في السابق، ورغم أنك لم تشترك في أي نشاط سياسي إلا أنك كنت تحتقر بعض الزملاء الذين كانوا يتعاونون مع الحرس الجامعي في الوشاية ببعض زملائهم من التيارات السياسية المختلفة.

أنت تختار ذات المصير.

تنه عن شيء وتأتي مثله".

تقول لنفسك: لكنني لم أفعل ذلك بإرادتي... قلت ذلك لأتخلص من قبضة السجن والعذاب لي ولأسرتي ولإخوتي...

هددوني... كنت مهددًا بأعز الناس.. نفسيتي محطمة.

تشعر أن نفسيتك الآن مازالت محطمة أكثر، وأن الإطار هو الذي تغير فقط، بينما بقيت الصورة كما هي.

إطار التعذيب والتهديد والترويع والأذى والرائحة القذرة وشرب البول تغير... لكن قلقك مازال حاضرًا وبقوة، بل وبأضعاف مضاعفة قياسًا على السجن.

في السجن كنت تشعر أنك مؤمن وتكابد ابتلاء سيكتبه الله في ميزان حسناتك... كنت تؤمن ببراءتك... كنت واثقًا أنك قوي رغم سياط التعذيب.

أما الآن، فلديك كل شيء.. لكنك تفتقر إلى الإيمان بعدالة وجهتك.

تبحث عن النوم.. ولا تجده.

تعتاد على الأرق.. وتعتاد مروة عليك مؤرقا.

لماذا لم ترو لها عن قصة الصفقة بينك وبين حمدي بك؟..

لماذا بترت خاتمة قصتك؟

أنت لم تكذب.. لكنك لم تروى القصة الكاملة.

قلت ثلاثة أرباع الحقيقة، وأغفلت الجزء الأهم.

ما لا نفعله في النور من المؤكد أنه خطأ، وإلا فلم فعلناه في الظلام؟

الساعة الآن العاشرة ليلاً.. والتساؤلات تقتلك، وهاتفك النقال يرتعش ورنينه يتصاعد، أخيرًا طلبك حمدي بك على هاتفك النقال، وبعد السؤال عن الصحة أعاد تذكيرك بأهمية عودتك للصلاة في مسجد الفتح ونقل أخبار الإخوة إليه... بالكتابة أو باللقاء المباشر. تنتهى المكالمة القصيرة. لا تدرى لماذا لحظتئذ شعرت أنك عسكرى في الداخلية، ولست طبيبًا.. وأنك عالجت المشكلة بمشكلة أكبر منها.. وأنك ارتكبت خطأ أكبر منك لن تستطيع احتماله.

تتذكر مقولة "دينسن":

(علاج أي شيء يكمن في الماء المالح: العرق، الدموع، أو البحر).

تغرق في الدموع.

(١٨)

كل ذلك يأتي مع الكروموسومات والوراثة...

فكلنا ملائكة ، وكلنا قتلة

هكسلي

الناس في بلادي لا يسمون الخيانة التي لا تُكتشف؛ خيانة.. لأنه ببساطة لا يعرفها أحد...

يعقدون حلقات ثرثرة طويلة مشفوعة بضحكات وقهقهات وأكل وشرب.. عريضة لاستعراض قائمة بأسماء المحظيات والعشيقات والحبيبات مع وصف تفصيلي لتفاصيل المعارك التي تقع على ساحة الفراش.. لكن الغريب أنهم يثقون ثقة عمياء في زوجاتهم رغم أن ثمة سؤال بديهي لا يراودهم: كل هذا العدد من الرجال الذين يخونون زوجاتهم من المؤكد أنه يقابله عدد مماثل من النساء يخنن أزواجهن.. إلا إذا كان الرجال شواذًا.. فلم كل هذه الثقة بالزوجات أيها السادة الرجال؟

لكن هل الخيانة في الفراش فقط؟

الخيانة لها وجوه كثيرة.. قد تخون حلمك ومبادئك أيضًا.. ومن يخن مرة يخون ألف مرة.. عندئذ تتحول الخيانة إلى عادة.. عادة سيئة لا يمكن العيش بدونها.

في طريقك إلى مسجد الفتح بعد أيام وأيام من الأرق تصلى المغرب وتنتظر الدرس الديني للشيخ إبراهيم طلعت.. يتمتع الشيخ إبراهيم طلعت بوجه يشع نورًا وسماحة حقيقية، حديثه رائق وعيناه سوداوان واسعتان جذابتان، هادئ للغاية، ووفي - يقولون إنه لم يتزوج منذ أن ماتت زوجته لأنه كان يحبها حبًّا يفوق الوصف-. لحيته سوداء متوسطة الطول وقامته قصيرة. وعندما يتحدث يجبرك على الاستماع له.

تستمع إلى درس الشيخ إبراهيم دون أن تسمعه.. مشغولاً بالتفكير.

بعد الدرس يقول لك الشيخ إبراهيم:

- حمد الله على السلامة يا دكتور منصور.

- الله يسلمك.

- احكيلي بقى إيه اللي حصلك لما اتقبض عليك.

وكأنك يا منصور كنت تنتظر ذلك، وببساطة القصص المأساوية تحكي، وتروي كل شيء، تريد أن ترتاح، أن تزيح جبل الهم الجاثم على صدرك.. البوح هو أكثر أنواع التطهر شيوعًا.. لا بأس.. الرجل يستمع إليك في المسجد دون أن يقاطعك.

رويت له كل شيء.. الاعتقال، التعذيب، المساومة، البول، الجدران. وحمدي زهران.. والصفقة.

الشيخ إبراهيم يستمع إليك في هدوء، لاحظ بسهولة أنك متوتر، أن العرق يتصبب منك في غزارة، والكلمات تتعثر على شفتيك.. بعدما فرغت من حديثك قال لك بصوت وقور:

- اهدى يا منصور.. اللي قلته متوقع.. وانت علشان بني آدم صالح ومؤمن ومتعرفش تخون، كان طبيعي إنك تقول لنا.

ترتبك قائلاً:

- بس أنا خايف يتقبض عليا تاني وحمدي ينفذ تهديده وأدخل في موضوع الاعتقال المتكرر وأخسر كل حاجة.

يرد الشيخ إبراهيم:

- ما تخافش أنا جنبك، ومعايا بقية الأخوة.. وبعدين إحنا ما بنعملش حاجة غلط، إحنا بنطلع نعتكف.. لينا نشاط دعوي، خيري.. رعاية ايتام.. مش أكتر من كده.. والقضية اللي اتمسكنا فيها خدنا فيها براءة لأننا مظلومين، بس الحكاية كلها تار..

يا سيدي واحد من جماعتنا اتعذب في السجن جامد واتصلب على العروسة وكهربا والبلاوي اللي أنت جربتها.. مين بقي اللي عذبه أخو حمدي زهران؛ ما هو كمان ظابط اسمه حامد أصل العيلة دي كلها ظباط.. المهم أخونا اللي عذبه أخو حمدي زهران خرج من السجن وأول حاجة قرر يعملها إنه ينتقم من اللي عذبه.. وفعلاً

راقب أخو حمدي وراح ضربه بالنار وموته.. طبعا اتمسك وخد إعدام.. لكن حمدي الله يجازيه حالف يجيبلنا إعدام لينا كلنا.. مش مكفيه الواد اللي خد إعدام.

– آه يعني الحكاية مالهاش علاقة بالتنظيمات ولا بالإرهاب ولا بأي حاجة؟

– طبعًا، الموضوع كله تار؛ مسألة شخصية.. مش أكتر من كده، واحنا واخدين ترتيباتنا علشان ما يتلفقلناش قضايا.. آخره معانا إيه الاعتقال المتكرر.. كل شوية يشد حد فينا، بس هو عايز يظبط قضية كبيرة ويلبسهالنا.. إعدام، مؤبد، كده يعني.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. طب والعمل؟

– مفيش.. تفهم حمدي زهران إنك بتنفذ خطته، وإنك بقيت مرشد، وإن محدش يعرف عنك حاجة؟

– أيود بس هو طالب مني معلومات.. أعمل إيه؟!

– يبقى تقوله على المعلومات اللي حنزودك بيها.

– ماشي.. على بركة الله!

– على بركة الله.

– قبل ما تمشى عايز أقولك إنه من حوالي عشرين سنة كده حصلت حادثة هروب من سجن طرة هرب اتنين من المعتقلين السياسيين الإسلاميين، وبعد ماهربوا فيه واحد أرشد عنهم طمعًا في المكافأة اللي وعدوه بيها.. لا طال مكافأة ولا حاجة.. ومات

الاثنين في تبادل لإطلاق النار، المهم الناس بعدت عن المرشد دا حتى الحكومة لأنه خاين ولا طال بلح الشام ولا عنب اليمن.. حتى الشغل قعد منه ومحدش عايز يشغله.. الخلاصة اللي يخون واحد علشان واحد تاني.. يخون الواحد التاني علشان واحد تالت وهكذا.. فهمت؟.

تومئ برأسك:

- طبعًا أكيد فهمت.

ثم تنصرف عائدًا إلى المنزل في خطوات سريعة..

لا تعرف ما فعلته خطأ أم صواب.. لكن كل ما تعرفه أن قلبك استراح، وأنه بات بإمكانك الآن النوم دون أرق.

(١٩)

Smile... tomorrow will be worse.

ابتسم الآن... فغدًا سوف يكون أسوأ

حكمة انجليزية

- هههههههه.. وبعدين احكيلي إيه اللي حصل ياعم فتحي.

- مفيش ياعم سطيحة أمى قالتلي إيه رأيك فيه بنت حلوة وبنت ناس تعالي نشوفها، قلت معنديش مانع. لما رحت هناك لقيت أبو البنت الناقص بيقولى طلع البطاقة.. القافية حكمت.. هيست عليه.. قلتله هو أنا جاي أتجوز والا داخل على لجنة ياسعادة الباشا!

- هاهاهاها.. وهو كان عايز البطاقة في إيه.. هو أنت رايح تتجوز واحدة من الهايكستب والا في السجل المدني!

- الراجل العبيط عايز ياخد العنوان بالظبط علشان يروح يسأل علينا.. ويعرف التيتا... يحط إيده على البلف.. يمسك الزيتونة. الافشخانات اللي أنت راسي عليها دي!

- فكك من الهيافة دي.. المهم البنت عجبتك؟

- هي حلوة جدًا.. مزة مزة يعني.. ومحترمة.. لبسها يعني محترم.. وشها حلو قوي عارف ياد ستايل نورا وبوسي كده.. بس المشكلة في البادي يامعلم.. البادي مسح.

- مسح.. يعني إيه مسح؟

- يعني مفيش تضاريس... مفيش حاجات تعرف تكارك فيها. يعني بص.. صدري أنا فيه أنوثة عنها.

- يانهار أزرق لأ.. دي ما تنفعش خالص.. دي أول بختك يعني لازم تتعامل.. تعيش وتتعايش!

- ما أنا قلت كده. أنا لما لقيت الراجل أبو البنت داخل في سكة هات البطاقة واركن على جنب وكان بيفكر يفتشنى تفتيش ذاتي.. رحت مهيس عليه طول القعدة.. أمي وابويا فهموا على طول اني بانظر البنت وإن الحوار هبق.. كانوا بيشروا عرق من الكسوف يابرنس.

- يعني هي دي أول مرة يا فتحي.. دا أنت أي حد يعرفك بيشر من فوق ومن تحت يا صاحبي.

- لأ واحلي ايفيه الراجل أبو العروسة بيقولي استهلاكك في السجاير قد إيه.. استغربت جاااااامد ياد من السؤال الفاكس دا.. بس فكرت شوية وقلتله علبة يعني مش عارف يعني حاتفرق مع أمه إيه علبة، علبتين.. هو بيصرف عليا من جيب أهله؟

- هاهاهاها.. وأكيد طلب منك تبطل صح؟

- أساسي، بس أنا قلتله إذا كان أبويا وأمي اللي هما أبويا وأمي ماقدروش يخلوني أبطل، بنتك اللي متعرف عليها من نص ساعة حتخليني أبطل.. بالعقل يعني!

- والله إنت بتقول حكم يابني.. قسّم يا بتاع البسبوسة وادي لكل واحد حقه.. قسم يابني قسم وسمعنى الدرر.

- المهم بعد ما خرجنا وخدت الكلمتين المعتبرين أمي بتقولي البنت معجبتكش في إيه قلتلها دي مسح.. قالتلي حتتخن بعد الجواز قلتلها وليه نستني لما تتخن بعد الجواز لما ممكن ناخد واحدة تسليم مفتاح.. كاملة متكملة بتضاريسها بجسمها بوشها بدلعها بتعليمها باحترامها... الولية راحت ساكتة.

- والله عندك حق.. بس الستات يا فتحي فعلا بيتخنوا بعد الجواز فعلاً أمك دي أرشانة.

- احترم نفسك ياهتيه.. البنت دي العضم بتاعها نفسه رفيع حتفضل طول عمرها رفيعة ومسخوطة. عليا النعمة لو استخبت ورا عود كبريت متبانش.. بس سبحان الله وشها زي القمر.

- ربنا يعوض عليك يابرنجي وتلاقي بنت الحلال..

عرفت إني شقطت بنت اسمها أسماء من الشغل، بس إيه... جمل يا صاحبي.. وتكه.. ترومواي.. بس مشكلتها إنها قصيرة.. كتافها بتحك في الرصيف.

- أسماء.. يعني أنهي اسم من الأسماء.. هاها.. سيبك إنت من الحوار دا إنت اشتغلت يانهار أزرق أخيرًا حتودع السجاير الفرط يا سطيحة.. اشتغلت فين؟

- مفيش ياسيدي خالي حدفني في مصنع للقزاز ماسكلهم الحسابات هناك؟

- وإنت تفهم حاجة في الحسابات دا أنت حمار.. طب عليا النعمة إنت ماتعرف الآحاد والعشرات والمئات.. دا أنت دخلت آداب حضارة أوروبية دي بالضالين وكنت بتدبلر السنة في خمس سنين..

يقاطعه سطيحة:

- إيه ياعم الباكبورت اللي طفح على أمي ده. اهدى، أنا وانت عارفين إني مش كويس في الحسابات بس بلاش نقول حمار دي، هو أنا يعني كنت لقيت شغلانة تانية وقلت لأ.. أنا بقول أهي حاجة أطلع منها مصاريفي وحق الدخان.

- وحيدوك كام يا مان؟

- ستمية جندي.

- حلوين.. لفهم.. والبسهم.. ودول يعملولك إيه يابني.

- ياعمي اهي نواية تسند الزير.. إلا قولي ما معاكش كابتشيونو؟

يرفع فتحي صوته:

- حشيش يعني؟!

يلكزه سطيحة:

- وطي صوتك إحنا على القهوة.

- يعني في المسجد يا خي.. لعلمك القهوة دي أنا كنت حاضرها من أيام ما كانت خرابة ومبولة وغرزة، والواد ميدو الله يرحمه مات أوفر دوز هنا حتى بالأمارة..

يقاطعه سطيحة:

- ارحم أمي من ذكريات الغرز دي خلينا في المصلحة.. معاك زفت؟

- لأ ما معاييش زفت.. إنت مش اشتغلت ما تحل الكيس ياد وتجيب "موني" "كاشات" "فكة" علشان نقدر نجيب المصلحة طالما إنت ملهوف عليها كده.

- لأ يا صاحبي.. دا أول شهر ليا في الشغلانة.. وبعدين أنا باقبض آخر الشهر همّا حيدولي المرتب مقدم ليه.. أبو تريكة.

- خلاص يبقى انسى الحوار.

يتلقي فتحى على جهازة النقال ١٢٠ مكالمة لم يرد عليها من رحاب وهو لا ينزعج كونه عدل وضع الجهاز إلى "صامت" ولا يرد فترسل له رسالة هي "فتحي أرجوك رد أنا في مصيبة"، ليتصل هو بها مدفوعًا بفضول قوي فتطلب منه أن يقابلها في وسط البلد أمام "هارديز".. يدفع الحساب ويصافح سطيحة قائلاً: " البنت رحاب عندها مشكلة.. لما أروح أشوف هي عايزاني في إيه".

يرد سطيحة:

- يابني أنت مش فكيتك من الحوار دا وقلبت البنت دي؟

- طبعًا.. بس دي بقى اسمها الرجولة.. لما واحد غريب يلجألك لازم تروحل، إيش حال بقى لو مكناش واكلين مع بعض عيش وملح؟

يقول سطيحة:

- بالتوفيق يا نجم، واكلين مع بعض بيج ماك كمان.

يصل فتحي إلى هارديز ليجد رحاب أمامه مرتدية بنطلون فيزون وبادي ستوميك وشعرها على هيئة ديغرادي بماكياج فاقع معتاد.. عيناها ضيقتان في الأساس؛ لكن مع الماكياج الآي لاينر والآي شادو والرموش يتحسن وضع عينيها.. أنفها صغير وشفتاها مكتنزتان ووجهها شبه دائري، لكنها قصيرة القامة مثل تسعون بالمائة من بنات العرب لكن قوامها نموذجي فقد أحسن خراط البنات صياغتها على مهل، ثم أن الكعب العالي يحل هذه المشكلة بشكل جيد.

يشير فتحي إليها بيده، فتبادله الإشارة ذاتها مع ابتسامة مصطنعة ابتلعت نصف وجهها.. في طريقه إليها يتجاهل صوت المعاكسات التي تصل إلى أذنه من قبل شباب متسكعين لسببين الأول أن أي مشاجرة بغض النظر عن نتيجتها لن تكون في صالحه، والسبب الثاني أنها ارتدت "المحزق" و"الملزق" وما يشف وما يرف ووضعت أطنانًا من الماكياج على وجهها.. أي أنها جعلت نفسها مثل أكرة الباب أي أحد بإمكانه أن يدخل.. فلماذا نلوم من يطرق على الباب؟

- مساء الخير.. إزيك يارحاب!

تتلعثم :

- الحمد لله، يالا نقعد في حتة.. الوقفة هنا حتجيب مشاكل.

ربما كانت تقصد التعليقات المسموعة التي تجاهلها فتحي متعمدًا:

"هو دا بقى القفا اللي كانت مستنياه الأوكشة دي"

يمسك فتحي يدها وينحرفان إلى شارع طلعت حرب باتجاه جروبي، وعند وصولهما إلى جروبي لم تنبس رحاب ببنت شفه وكأنها خرساء، لكن فتحي لاحظ أنها تكتم بكاءها.

عندما جلسا في جروبي ابتسم قائلاً:

- يا بنتي قلقتيني طول الطريق لابسة وش كلب.. في إيه؟

انفجرت رحاب باكية، وبعدما فرغت من بكائها قالت:

- فيه واحد عملتله add على الفيس بوك.. وبعدين الحيوان دخل على البروفايل بتاعي وخد الصور اللي حاطاها وركبها على صور بنات عريانه وبيهددني بيها.

يرد فتحي منفعلاً:

- ياما حذرتك.. إحنا سبنا بعض بسبب الحوارات دي.. قلتلك الفيس بوك خطر غلط البنت اللي تحط صورها ممكن الصور دي توديها في داهية مسمعتيش كلامي وآدي النتيجة.. وبعدين متحاوليش تقنعيني إن الأخ دا دخل من الباب للطاق عمل كده. أكيد كان فيه نظرة فابتسامة فموعد...

تقاطعه رحاب:

- لأ ولا عمرى شفته.. هما مرتين بس عملنا شات فيهم مع بعض وخلاص.

- شات فين، على الـ msn والا على الفيس بوك؟

- على الـmsn

- حبيب هارتي.. كمان.. دا كويس إنكم ماوصلتوش أوضه النوم.

تنتحب رحاب:

- فتحي أرجوك أنا مش ناقصة.. أنا دورت مالقيتش حد راجل يقف جنبي غيرك، إنت عارف أمي وأبويا مسافرين الإمارات وبعاد عني وما آمنش حد من أصحابي على السر دا. أرجوك أقف جنبي.

- ماشي، أنا حاقف جنبك، بس علشان أنا راجل وعلشان كان فيه حاجات حلوة بينا في يوم من الأيام.. بس، فاهمة؟..

الواد دا ساكن فين؟

- في السبتية.. في السبتيه يا فتحي، هو قال كده.

- حلاوتك يا سبتيه.. وكمان بيئة وLocal دا تلاقيه عزبجي.. طيب وبيشتغل والا طالب؟

- لأ.. هو قال إنه طالب في سنه تالتة كلية الحقوق جامعة عين شمس.

- انتساب والا انتظام؟

- معرفش.

- أمال كنتوا بتتشاتوا مع بعض في إيه، الله يخرب بيوتكوا.. اسمه إيه بقى؟

- مدحت كريم.

- إيه مدحت دي، إيه الأسماء دي؟!.. ده الاسم ده اتلغي من زمان.. ماشي ياسي مدحت، إنتي عارفة أن الصور دي ممكن تترفع على أي محرك زي الرابيد شير أو ميجا ابلود أو فور شير وساعتها سمعتك حتبقى.. شكرا يامعلمة.

لا تحسن رحاب السيطرة على نفسها.. صوت نحيبها يعلو ليصبح مسموعًا.

يشعل فتحي سيجارة.. ويهم بالخروج منفردًا من جروبي قائلاً:

- يومين.. ٤٨ساعة. ويجيلك خبر إني حطيت على الواد دا.

- بس أنا مش عايزة أدخل في حوارات.. إنت عارف أنا بنت وليا سمعتي.. مش عايزة شوشرة.

- ولما انتي عارفة كده دخلتي نفسك في الحوارات دي ليه؟

يدفع فتحي الحساب ويخرج منفردًا تاركًا رحاب وحدها في جروبي يأخذ نفسًا عميقا من السيجارة.. ويكتشف أنه ما زال يحب رحاب.

(٢٠)

لا يُخدع.. من علِم أنه خُدِع

ميكافيللي

تشعر أن القدر اختارك لأداء مهمة لم تكن تتوقعها.. تمامًا مثلما يختار الله الأنبياء والرسل. وساوسك مستمرة في الاشتعال، فأنت بطبعك مسالم، ولكنك دخلت رغمًا عنك في لعبة لا تدري إلى أين ستقودك. ما يقلص من وساوسك أن ضميرك مرتاح على أية حال.

في مديرية أمن القاهرة وبعدما انتهيت من سرد المعلومات التي زودك بها الشيخ إبراهيم حول طبيعة وأنشطة جماعه الشيخ، اعتدل حمدي بك زهران على كرسيه الوثير مشعلاً سيجارته وقارئا الحروف المكتوبة بالقلم الرصاص على الورقة البيضاء التي قدمتها إليه قائلاً:

– بس.. هو دا اللي قدرت عليه يا دكتور منصور؟.. على العموم ماشي.. بس أنا عايز أقولك لو كنت عملت حركة كده والا كده...

تتلعثم قائلاً:

- يا حمدي بك أرجوك تعفيني من المهمة هنا.. أنا راجل دكتور وماليش دعوى بقصة الجماعات الإسلامية دي ولا بالسياسة.

- ما ينفعش يا دكتور.. خلاص، دخول الحمام مش زي خروجه، وعارف.. إذا كنت غدرت بينا، حنعرف.. وساعتها بقى مش حنرحمك.

انصرف منصور من المبني مسرعًا... كان قد أنجز عمله في المستشفى ومن المفترض أن يذهب إلى العيادة، لكنه اتصل بالممرضة ليقول لها إنه لن يستطيع المجيء إلى العيادة؛ طالبًا منها الاعتذار للمرضى.

وعندما وصل إلى المنزل وأعدت مروة عشاءً سخيًا تناوله بدون شهية، ثم نادي عليها:

- مروة.. تعالي عايزك.

جاءت مروة مسرعة وجلست بجواره على الأريكة الفسيحة قائلة:

- نعم يا حبيبي.

- إيه رأيك نسافر برة أي دولة أوروبية أو حتى عربية.. أنا دكتور وحالاقى هناك شغل.

تندهش مروة قائلة:

- أيوه بس الأولاد والمدارس.. وبعدين إيه اللي طلع الموضوع دا في دماغك فجأة.. منصور فيه حاجة؟

ترد بعصبية:

- يووووه.. هو الواحد ميعرفش يكلمك كلمتين.. أنا خلاص خدت قرار لازم نسافر.. لازم.. أنا مش حاسس بالأمان هنا.. ولا عارف أنام ولا عارف اشتغل ولا عارف أعمل أي حاجة..

أنا باموت يا مروة.. باموت بس ببطء.. حاسس كأن عندي سرطان.. كل ما أعالج حتة تطلعلي حته تانية موبوءة.. إلى مالانهاية.. دايرة مفرغة.. إذا سافرنا حنخلص من كل دا.

تبكي مروة.. ومن بين دموعها تقول:

- خلاص يا حبيبي.. زي ما تحب.. أنا معاك دايما.. انشالله في آخر الدنيا.

وعندما تحتضنك بدفء الدنيا كلها؛ تلاحظ دموعك الساخنة التي تجري على وجهك.

(٢١)

النصر يذهب للاعب الذي يرتكب الخطأ القبل الأخير

جاكي مايسون

منذ زمن لم يذهب فتحي إلى الجامعة؛ جامعة عين شمس؛.. أثناء الدراسة الجامعية يتطلع الجميع إلى موعد التخرج والعمل وتحقيق الذات، ولكن عندما يتخرجون ويعملون فإن الحنين يراودهم مجددًا لاستعادة أيام وذكريات الجامعة.

وصل فتحي إلى جامعة عين شمس.. هنا ذكرياته المحفوظة.. ممر جيمي.. شارع الحب وsquare علوم وكافتيريا ميدو.. وتجمع المسيحيين بجوار كلية الألسن، والعشاق اثنين اثنين في كل مكان؛ وكأنهم يذهبون إلى الحب وليس إلى العلم...

دخل فتحي من البوابة نتيجة علاقته القوية بعبد النبي فاروق أحد الحرس التاريخيين في الجامعة، وقد تعمقت هذه العلاقة بعد جلسة تبادل لسجائر الحشيش بجوار ممر جيمي الساعة العاشرة في أحد مساءات الامتحانات القديمة؛ الزهيدة والمتعبة.

كمن يبحث عن إبرة في كوم قش.. لكن الله المستعان.. أمام ممر جيمي حيا فتحي صديقة صبري عمران وهو أحد الطلبة التاريخيين في كلية الآداب يتباهي دائمًا بأنه أستاذ زائر في الكلية وبأنه دفعة العميد، وفي الحقيقة فإن هذا صحيح رغم بعض المبالغة فعمر صبري عمران حاليًا ثلاثة وثلاثون عاما.. بالأحضان استقبل صديقه ثم أشعلا سيجارتين مارلبورو أبيض سيلفر وسأله:

– إيه يازميلي.. إنت قلقتني.. عايش في دور عادل أدهم وتعالى، والكلام ما ينفعش في التليفون وبتاع، وفجأة قفشت تيجي الجامعة اللي معتبتهاش من ساعة ما تخرجت.. ما ترسيني على الحوار يا كبير.

– بص يا صاحبي.. فيه بنت تخصني اتعمل معاها الغلط والواد اللي عمل معاها كده عيل هتيه من السبتية في سنة تالتة حقوق واسمه مدحت.. مدحت كريم.

– مدحت. ماهي باينة من أولها... بص طلبك عندي.. إنت جيت للشخص المناسب.. استمتع بالرحلة ودع لنا القيادة... بس إيه هو الغلط اللي اتعمل معاها بالظبط.. أصل كلمة الغلط دي كبيرة يابرنس.

– بيهددها بصور خدها من الفيس بوك بعد ما خدها وحاطها على نسوان عريانة.

- طب ما كده هو واد معلم والبنت هي اللي غلطانة.. بس طالما يخصك يتشلفله يا برنس.. دا أنا ماشفتكش من أيام الهكسوس. من أيام حرب الغنم.. يبقى لما تطلبني في مصلحة أقل معاك مستحيل.. بص يابرنجي أنت تيجي بكرة وتتصرف في رجالة وتحط عليه وانا حاجيبلك الواد ده من قفا أمه وأعمل معاه الغلط.

- لأ يابرنس أنا عايز أعرف هو ساكن فين، عايز ازنجفه في بيته.

- في بيته.. اقتحام يعني.. اشمعنى؟

- إنت غبي.. يابني الصور والحاجة فين؟ في الكمبيوتر.. والكمبيوتر فين؟.. في بيته.. يبقى أروحله فين؟

- في بيته.. صح ياد. أمال بيقولوا عليك حمار ليه؟.

أدرك فتحي أنه يحاول رد كلمة غبي بحمار فلم يتوقف أمام ذلك كثيرًا ثم قال:

- تعرف تجيب عنوانه؟

- أساسي... استناني خمس دقايق.

غاب صبري سبع دقائق ثم عاد متهللاً

- اسمه مدحت كريم عبد الله محمد.

- طب والعنوان؟

- إنت كده بقى غبي، طالما معانا الاسم يبقى ندخل عل موقع 140 online المصرية للاتصالات في خدمتك اعمل search على خط التليفون اللي أكيد باسم أبوه، حيطلعلك العنوان في مينيتاية.

ابتسم فتحي قائلاً:

- شكرا يابرنس.. ومردودالك في الأفراح

فور خروجه من الجامعة أخرج فتحي موبايله وتحدث مع سطيحة قائلاً:

- بص يا سطيحة.. إنت في الشغل، وأكيد عندك نت.. أدخل على موقع 140 online اعمل search على الاسم دا: كريم عبد الله محمد، هو من السبتيه حيظهرك بقى عنوانه بالتفصيل، رن عليا وحاتصل بيك تديهوني.. قدامك قد إيه.. عشر دقايق كتير.. خمس دقايق بس.

جلس فتحي على مقهى جديد لم يعاصره متاخم للجامعة وطلب شاي كشري منتظرًا "رنة" سطيحة، إلى أن جاءت فاتصل به قائلاً:

- جبت العنوان.. طب ثواني خليك معايا لما أجيب ورقة وقلم.. أيوه في واحد هنا ابن حلال معاه ورقة وقلم.. ها ايوه أيوه أيوه.. شكرًا يا نجم حابقى أكلمك بعدين.

ثم أغلق الموبايل في وجه سطيحة لأنه متأكد أنه لن يكترث كثيرًا فقد تعود على ذلك، ثم تذكر رقم موبايل المعلم مرسي الحلو.. إنه انسب شخص للاستعانة به في هذه المهمة.. يتذكر علبه السجائر التي مازالت قابعة في سيارته.. يدفع حساب المقهى ثم يجري نحو

سيارته باحثًا عن دابه السجائر، وأخيرًا وجدها في التابلوه، فابتسم ابتسامة ارتياح ثم اتصل بالمعلم مرسي الحلو قائلاً:

- مرسي باشا.. كفارة، كنت عارف إنك حتخرج بعدي على طول. أنا فتحي اللي كنت معاك في الحجز.. فاكرني.. حلو قوي.. أنا قلت أكيد إنت حتخرج يا معلم.. حمد الله على السلامة.. عايزك في خدمة.. ولازم أشوفك.. اجيلك فين.. فين.. في المنيب.. اشمعنى المنيب.. لأ أصلى مش دايس قوي فيها ماشي.. حاجيلك.. مسافة السكة.

بصعوبة شديده ينجح فتحي في الوصول إلى المعلم مرسي بمسكنه في المنيب؛ وهو مؤكد مسكن جديد للمعلم؛ لأنه زاره قبل سنوات في عزبة النخل.. يستقبله المعلم بابتسامات وأحضان باذخة، ثم يحلف بالطلاق بالتلاتة على أن يشاركه قطعة حشيش طازجة يقول إنها قادمة للتو من المغرب، خصوصًا أنهما سيشربانهما بـــ"الكنشة"، وبعد وصلة الحشيش يقول فتحي:

- متشكرين على الواجب.. واجب على البورش.. وواجب في البيت، يعني جمايلك مغرقاني.. بس أنا عايزها تغرقني أكتر.

- إنت تؤمر؟

- عايز أربع رجالة من عندك جدعان وحبسجية معايا في مصلحة تخصني، والمصلحة دي بقى...

يقاطعه المعلم مرسي:

- ماليش فيه.. إنت طلبت أربع رجالة، وانا حاجيبلك ست رجالة تحت أمرك فوت عليا بكره الصبح وروح اقضى مصلحتك.. والا تحب تروح دلوقتي واحنا بالليل الساعة حداشر ونص. وكمان إنت متكيف يعني الاداء حيبقى عالي.

- ماشي.. ياريت دلوقتي.

يغيب المعلم مرسي ربع ساعة ثم يعود ومعه سته رجال أشداء يهمس في أذن أحدهم، ثم يقول:

- الرجالة تحت أمرك يا غالي.

ينصرف فتحي ومعه الرجالة.. كان يفكر كيف يمكن أن يتكوم هؤلاء الرجال في سيارته الشاهين، لكن الرجال أكدوا له أنهم سيتعقبونه بسيارة أخرى، فارتاح ثم شرح لهم الخطة.

وعند الوصول إلى الهدف حيث منزل مدحت ترجل الرجال من سيارتيهما، ثم صعدوا إلى الطابق الخامس بعدما سألوا أحد الشباب الواقفين تحت المنزل، كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً، دق فتحي الباب ففتح له شخص أصلع كبير في السن يبدو أنه كريم أبو مدحت، فبادره فتحي بعدما فتح مطواه قرن غزال ذات نصل لامع:

- فيه مصلحة في الكمبيوتر بتاع ابنك حناخدها ونخلص.. لو اتكلمت حاشقك.

بهت الرجل الذي كان نصف نائم، لكن انتشار الرجال الستة في الصالة جعله يصمت.

دخل فتحي غرفة مدحت ثم حمل الكمبيوتر معه، وقبل أن ينصرف قال:

- بلغ ابنك أن حظه حلو إنه مش موجود.. قله رحاب بتسلم عليك وإذا عمل حاجة تانية فتحي عبد الله حيدبحه ويزنجفه.

ثم أغلق الباب بقوة.

في الحقيقة كان فتحي يرتجف من الداخل.. شكر الرجال الستة وأصر على أن ينفحهم ستمائة جنية بواقع مائة جنية لكل واحد منهم.. ثم اتصل برحاب ليؤكد لها أن المهمة انتهت وعندما تصارحه بأنه من المحتمل أن يكون معه نسخة من الصور على CD أو "فلاش ميموري" يؤكد لها أن ما فعله مع "الرجالة" في منزل كريم سيجعله خائفًا لدرجة أنه هو من سيقوم بنفسه بالتخلص من أية بقايا لعلاقتهما.

في طريقه إلى منزله لم ينتبه فتحي أنه يبكي.

(٢٢)

إذا كنت عاجزًا عن قتل من تكره، فلا تقل أنك تكرهه..
أنت تعهر هذه الكلمة.
مونتيرلان

لا تضغط على زر فيمكنك التخلص من الأرق، ولا بمقدورك النسيان مثلما ترغب، لكن يمكنك ذلك عبر طريقة واحدة هي الا تجد وقتًا لتفعل ذلك، لا ترح نفسك.. لا تشتكي ولا تشرح، جاهد لكي ترهق نفسك.. لكي تنتحر في العمل.. ستعود إلى منزلك خائر القوى. لحظتئذٍ يمكنك استقبال النوم دون، أرق أو حتى ذكريات سيئة تسعى لنسيانها فتتصدر واجهة ذاكرتك.

تنفذ هذه الخطة بإتقان يا منصور، لكن رغم ذلك يداهمك الأرق كلص غادر، وتتعقبك الذكريات السيئة كظل مخلص، ويعانقك الخوف كعاشق مشتاق، لا بأس.. ستمضي.. ستسافر.. أرض جديدة وسماء جديدة ينتجان حظًا أفضل.

تجتر هذه الافكار في طريقك إلى صيدلية الأسعاف بشارع الجلاء.. تذهب إلى هناك من أجل متابعة بعض الأدوية الجديدة التي

يهدونها الصيادلة إلى الأطباء لصرفها في الروشتات الطبية، وعندما تخرج تسير في شارع الجلاء..

تقترب منك سيارة نصف نقل سوداء بدون أرقام..

تهدئ من سرعتها..

وعلى مرأى ومسمع من الناس تظهر يد ممتدة إلى الخارج بمسدس..

ينطلق صوت الرصاص باتجاهك..

الضرب في سويداء القلب..

تسقط صريعًا..

وتمضي السيارة في طريقها بسرعة شديدة.

يتجمع الناس حولك.. يلاحظون أن بذلتك بيضاء وقميصك أبيض وبنطلونك أيضًا أبيض. وحده حذاؤك أسود؛ يشبه السيارة الغادرة.

لكن الغريب..

الغريب..

الغريب..

الغريب

أن الناس الملتفين حولك وأنت تحتضر في وضح النهار في الساعة الثانية ظهرًا؛ يؤكدون أنك كنت تبتسم مثل الأنبياء رغم أنك قلت عبارة لم يفهمها أحد بعد الشهادتين، وهي:

"وحشتني أوي.. أنا كتبت اسمي على الزنزانة.. يمكن حد يفتكرني.. يمكن".

في اليوم التالي نشرت الصحف خبرًا صغيرًا تحت عنوان:

- "سيارة مجهولة تطلق النار على طبيب أسنان"

وبعدها بأسبوعين نشرت الصحف ذاتها خبرًا؛ لكن بحجم أكبر؛ تحت عنوان:

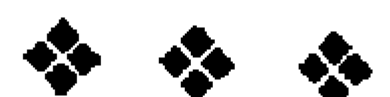
- "مقتل حمدي زهران رميًا بالرصاص".

حدث هذا في الوقت الذي يتساءل الجميع من بين الدموع:

- أين اختفى فتحي؟

ولا أحد يجيب..

ولا أحد يعرف.



النهاية


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net



في لحظات كان العسكر في الشقة، ٢٠ ضابطًا أو يزيد؛ انتشروا في الشقة بخفة بعدما أطلقوا النار على بوابة العمارة، أسلحة آلية محشوة بالطلقات ومدافع رشاشة..

تطلب أن تبدل ملابسك فأنت ترتدي ترينينج سوت، فيهزأ أكبرهم رتبة منك قائلا:

- هو أنت رايح حفلة يا روح أمك.. أقولك إيه ما تلبس سموكنج أحسن؟

يقولها ثم يهوي على وجهك بصفعة قوية عندما تدفعه بضعف محاولاً منعه من تدمير شقة عمتك، تتذكر أن آخر كلمة سمعتها هي:

- عاملي فيها زعيم يابن القحبة؟

في البوكس.. تكتشف انك لست ضعيفًا كما كنت تعتقد، كنت دومًا تردد أنك أضعف من ذبالة مصباح، لكنك الآن أقوى من ثور.. وإلا فما السبب لتسيير كل هذه الجيوش من أجل إلقاء القبض على شخص واحد؟

تحاول تذكر رتبة ذلك الذي صفعك. بزة عسكرية معتادة.. وثا ... لا بد أنه مقدم؛ وربما عميد.. تعترف بفشلك في معرفة الرتب ا ... أنك تكرههم بشده مثلما يكره الأطفال شرب حليب الصباح.

تدرك أن هناك تكتيكًا جديدًا في جهاز الشرطة، فهم مشهو ... جر والساعة الآن التاسعة مساءً... لا بد أن هناك تطورًا في أداء جه


ISBN 9789774930591
9 789774 930591